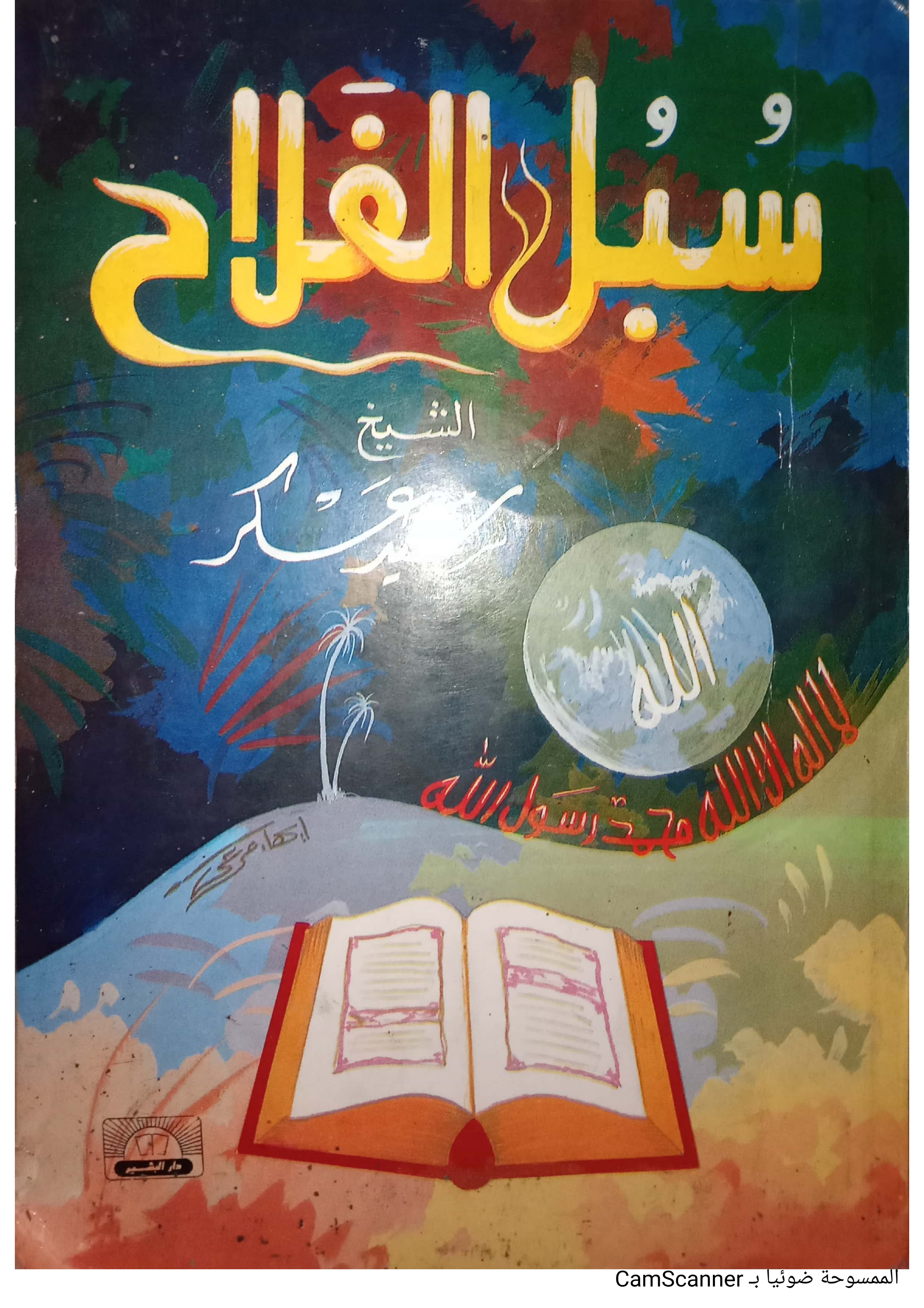

سبل الفلاح
الشيخ
سعيد عكر
الله
لا إله إلا الله محمد رسول الله
دار البشير

سبل الفلاح

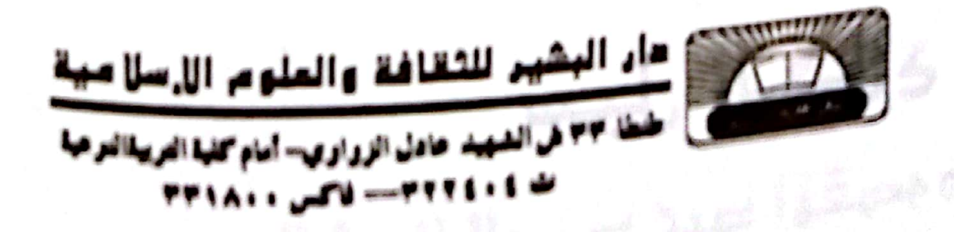
الشيخ/ السيد عبد المقصود عسكر

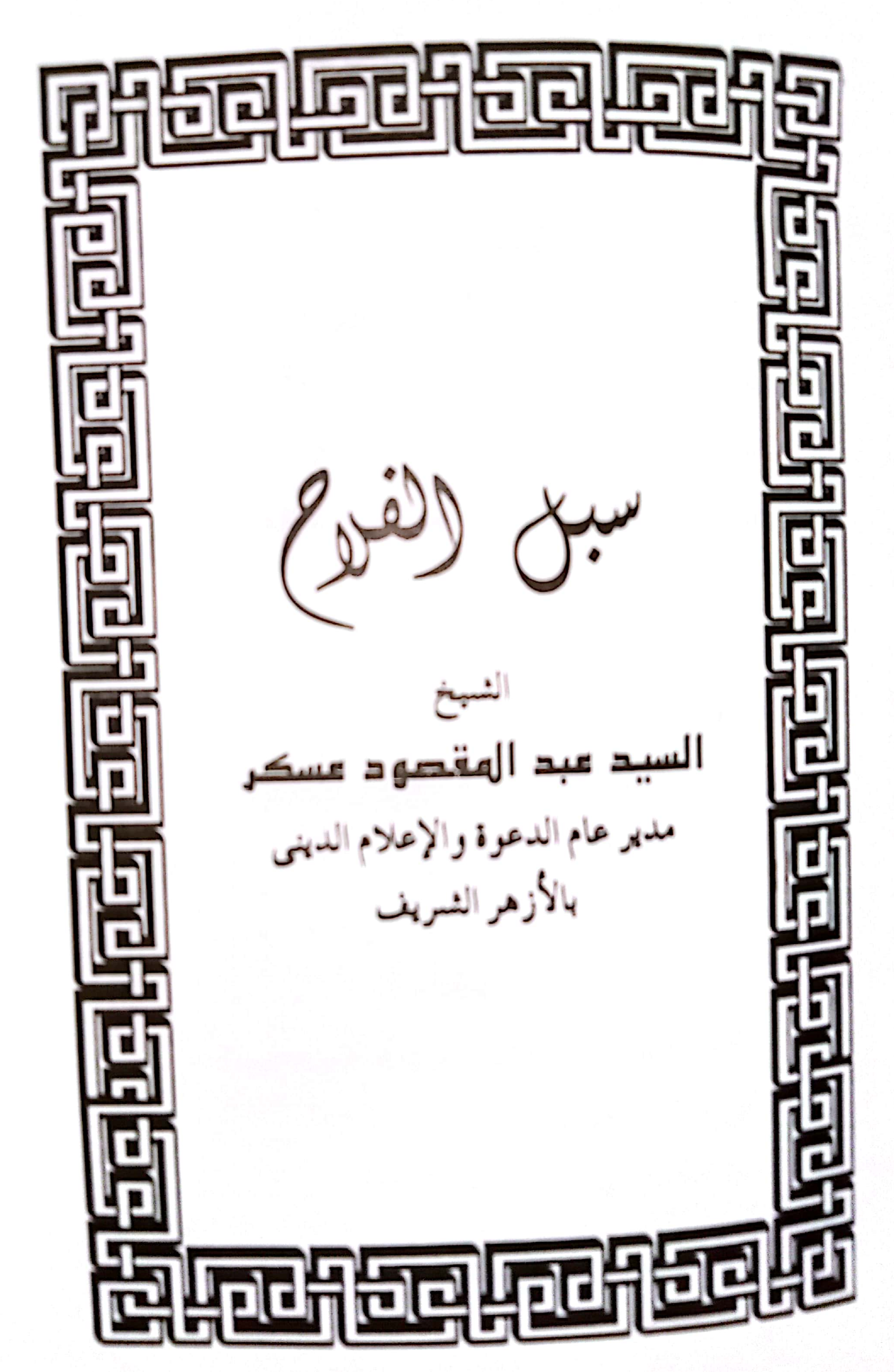
رقم الإيداع ٩٤/٣٣١٤

977 - 5065 - 85 - 2

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م





سبل الفلاح

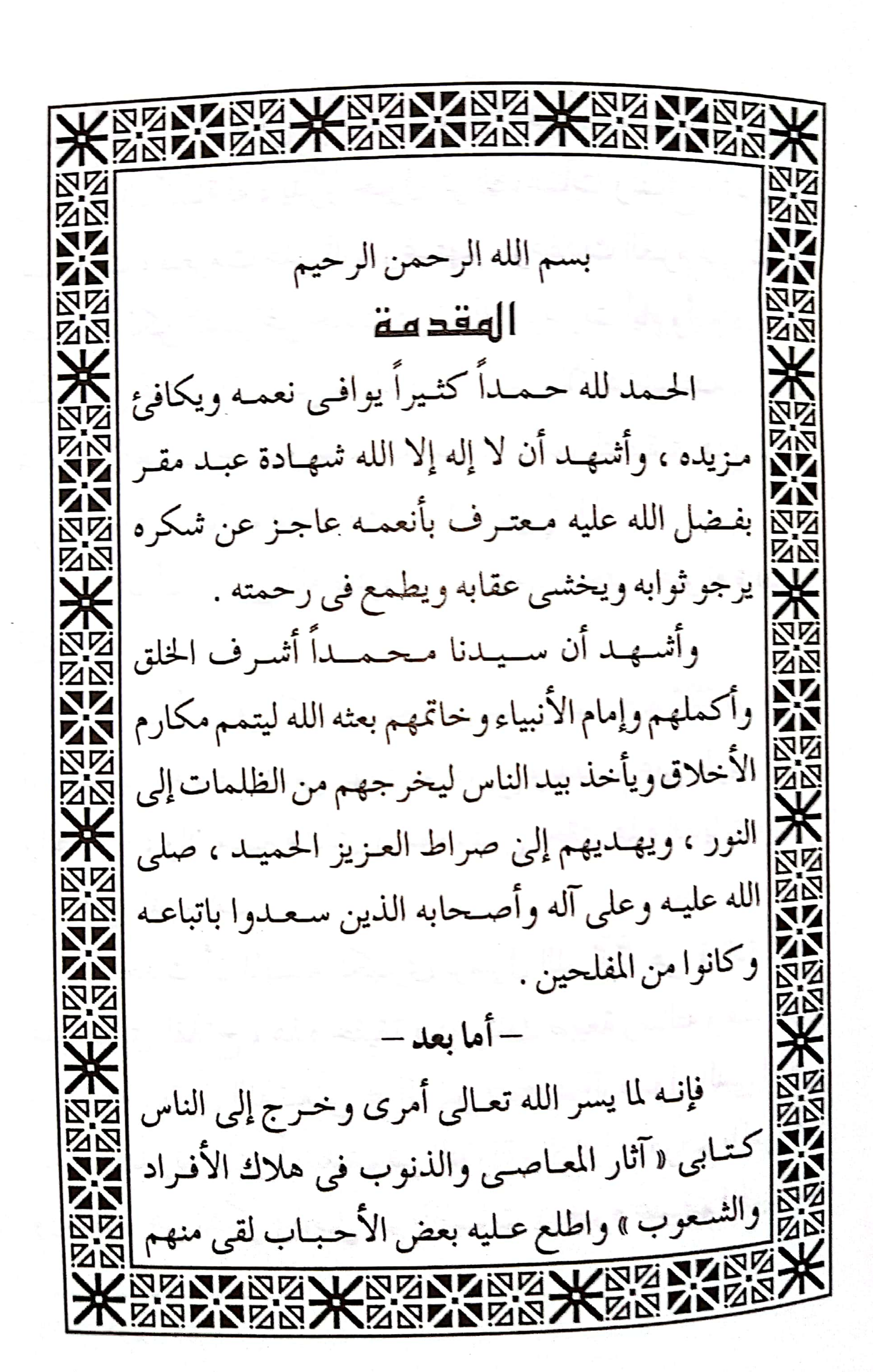
الشيخ

السيد عبد المقصود عسكر

مدير عام الدعوة والإعلام الدينى

بالأزهر الشريف





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً يوافى نعمه ويكافئ مزيده ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة عبد مقر بفضل الله عليه معترف بأنعمه عاجز عن شكره يرجو ثوابه ويخشى عقابه ويطمع فى رحمته .

وأشهد أن سيدنا محمداً أشرف الخلق وأكملهم وإمام الأنبياء وخاتمهم بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق ويأخذ بيد الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين سعدوا باتباعه وكانوا من المفلحين .

– أما بعد –

فإنه لما يسر الله تعالى أمرى وخرج إلى الناس كتابى « آثار المعاصى والذنوب فى هلاك الأفراد والشعوب » واطلع عليه بعض الأحباب لقى منهم

ترحيباً طيباً وحدثونى فى ذلك وطلبوا منى أن أتبعه بكتاب آخر يكون كالتكملة له ، يدور حول أثر الطاعات ونتائج الأعمال الصالحات ، فعزمت على تلبية رغبتهم ، وعقدت العزم على تحقيق بغيتهم ، لكن الشواغل حالت دون ذلك ومرت أيام وأيام دون أن أتمكن من تحقيق المراد إلى أن شاء الله الذى لاترد مشيئته ولامانع لمراده ولامعقب لحكمه فيسرت مشيئته الأمور لتحقيق هذه الرغبة ﴿ وماتشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ (١) .

وكان أن ألهمنى الله فكرة هذا الكتاب واختيار عنوانه « **سُبُل الفلاح** » .

ورحت أنظر فى كتاب الله وفى سنة رسول الله ﷺ فوجدت أن كتاب الله يريد للناس الهدى والفلاح ويدلهم على طريق الفوز والصلاح ، وأن منهجه الذى رسمه للناس يحقق هذه الغايات ويرفع إلى أعلى الدرجات .

ووجدت أن المهمة الكبرى لرسول الله ﷺ هى قيادة الدنيا على طريق الفلاح ، هذه حقيقة دينه وتلك طبيعة رسالته وهذا جزاء من اتبعه ، يقول الله تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل هم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث

---

(١) التكوير : ٢٩ .

ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

هذه آية واحدة من كتاب الله حددت معالم الطريق ، ورسمت الخطوط الأساسية التى عليها مدار النجاح وبها يتحقق الصلاح والفلاح .

وتتلخص هذه المعالم التى تضمنتها الآية فيما يأتى :

١ ـ الإيمان برسول الله ﷺ شرط أساسى للفلاح ، فمن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم أضل الله عمله وكان من الخاسرين ، والكفر به ﷺ كفر بكل رسول وإنكار لكل كتاب فقد بشر به كل رسول وجاء ذكره فى التوراة والإنجيل ، فمن زعم أنه مؤمن بهما لزمه أن يؤمن بمحمد ﷺ .

٢ ـ الفلاح هدف واضح فى شريعته ، والخير والصلاح غاية من غايات دينه فهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولافلاح لأمة إلا بهما ولايتحقق نصر لأمة بدونهما ، وهو ـ ﷺ ـ يحل كل طيب ويحرم كل خبيث ومعلوم أن الفلاح فى ذلك ، وأيضا فإن ترك الطيبات وفعل الخبائث يؤدى إلى الخسران .

ودينه سهل ميسر لاعنت فيه ولامشقة **﴿ يريد الله بكم اليسر**

---

(١) الأعراف : ١٥٧ .

ولا يريد بكم العسر ﴾ (١) .

٣ ـ ولكى يتحقق الفلاح بحق وجب أن يترتب على الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به استمساك بدينه واتباع لتعاليمه وتأييد له ونصرة على أعدائه ، وتلقى كل ماجاء به بالرضا والقبول والطاعة والالتزام والاهتداء بنوره الذى جاء به وتضمنه الكتاب المنزل عليه .

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ (٢) .

هذه هى المبادئ الأساسية التى لابد منها للوصول إلى الفلاح .

أما تفاصيل الصفات والأعمال المطلوبة والفضائل والأخلاق التى ينبغى أن يتحلى بها الراغبون فى تحصيل الفلاح فإنها كثيرة متعددة وشاملة لكل نواحى الحياة ومجالاتها ، وقد تحدثت عنها آيات كثيرة فى كتاب الله .

منها : الآيات الأولى من سورة البقرة والتى تضمنت التقوى والإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق من رزق الله والإيمان بكل الكتب المنزلة واليقين باليوم الآخر ، وكان ختام ذلك قول الله تعالى فى حق من اتصفوا بهذه الصفات **﴿ أولئك على هدى من ربهم**

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

(٢) الشورى : ٥٢ .

وأولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

والفلاح هو الفوز بالمطلوب من خيرى الدنيا والآخرة .

ويقول الإمام ابن كثير فى معنى قوله تعالى ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ أى الذين أدركوا ماطلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ، أو هم المدركون ماطلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب والخلود فى الجنات ، والنجاة مما أعد لأعدائه من العقاب .

وهذا المعنى يشير إليه قوله تعالى ﴿ **ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما** ﴾ (٢) .

وقوله تعالى ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ (٣) .

وفى الحق أن العقلاء ينبغى أن يستيقنوا من هذه الحقيقة أن من دخل الجنة فقد أفلح وفاز وأن من دخل النار كان من الخاسرين .

وهذا يستوجب التعرف على طريق الجنة للسير فيه وصولاً إليها ، وعلى طريق النار ليبتعد عنه هروباً منها .

يقول الله تعالى ﴿ **لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون** ﴾ (٤) .

ويقول الله تعالى ﴿ **قل إنَّ الخاسرين الذين خسروا**

---

(١) البقرة : ٥ . (٢) الأحزاب : ٧١ .

(٣) آل عمران : ١٨٥ . (٤) الحشر : ٢٠ .

أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ (١) .

وقال الإمام ابن كثير : قال النسائي في تفسيره أن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ، قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ، فقرأت ﴿ قد أفلح المؤمنون .... ﴾ حتى انتهيت إلى ﴿ ...... والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ (٢) .

قالت هكذا كان خلق رسول الله ﷺ .

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ، ولبنة من زبرجدة خضراء ، ملاطها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ ، وحشيشها الزعفران ، ثم قال لها انطقى ، قالت ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فقال الله وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل ، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٣) .

ومن هنا نفهم أن تزكية النفس والمحافظة على الطاعات وفعل الخيرات يؤدى إلى الفلاح ، وأن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤدى إلى الفلاح .

وأن مجاهدة النفس والتغلب على الشح والبخل تؤدى إلى

---

(١) الزمر : ١٥ .　　(٢) المؤمنون : ٩ .　　(٣) الحشر : ٩ .

الفلاح وأن الدعاء والذكر والتوبة والاستغفار والإنابة كلها سبل إلى الفلاح .

وأن طهارة القلب ونظافة اليد واللسان والفرج كلها سبل تؤدى إلى الفلاح .

وأن الجهاد والصبر والمصابرة وأداء الأمانات ، والصدق فى الحديث ، والوفاء بالوعد ، والمحافظة على العهد كلها سبل تؤدى إلى الفلاح .

وجماع ذلك كله الإيمان بالله واليوم الآخر إيماناً يدفع إلى كل عمل صالح ويحفظ الإنسان من كل عمل طالح .

يقول الله تعالى ﴿ **والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ (١) .

هكذا بكل وضوح وإيجاز معجز ، أمام الناس طريقان لاثالث لهما طريق الخسران والهلاك وهو الذى يسير فيه أكثر الناس وطريق النجاة والنجاح والفوز والفلاح وهو طريق الإيمان والعمل الصالح ، وقيام الجماعة المسلمة التى تتواصى بالتزام الحق والعمل به وتتواصى بالصبر على تكاليف السير فى هذا الطريق ثقة بأن العاقبة لها .

الجماعة المتضامنة فى حراسة الحق مدافعة عنه مجاهدة فى سبيله مزودة بزاد الصبر .

---

(١) سورة العصر .

ومن هنا نستطيع أن ندرك السر فيما كان يفعله أصحاب رسول الله ﷺ فقد كان الرجلان منهم إذا التقيا في طريق لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ثم يسلم أحدهما على الآخر (١) .

« لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الإلهي ، يتعاهدان على الإيمان والصلاح ، ويتعاهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر ، ويتعاهدان على أنهما حارسان لهذا الدستور ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور » (٢) .

ولعله من أجل هذا قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى :

« لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم » .

فاللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا ، واجعلنا اللهم من المفلحين الفائزين .



الشيخ / السيد عبد المقصود محمد عسكر

مدير عام الدعوة والإعلام الديني

بالأزهر الشريف

---

(١) رواه الطبراني .

(٢) في ظلال القرآن تفسير سورة العصر .

التوحيد أساس الفلاح

لقد أرسل الله تبارك وتعالى أنبياءه ورسله جميعاً ليعلنوا بين الناس أنه لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، يقول الله تعالى ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ (١) .

وقد حكى القرآن الكريم ما أوحاه الله إلى موسى عليه السلام فكان منه قوله تعالى ﴿ **وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ (٢) .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ « أفضل ماقلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله » (٣) .

ولهذا فقد تقرر أنه لايُقبل عمل صالح بل ولايسمى صالحاً إلا على أساس من عقيدة التوحيد ، وهذا أصل مشترك بين جميع الأنبياء نزلت به كل الكتب وبُعث به كل الرسل ، يقول الله تعالى ﴿ **ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾ (٤) .

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .
(٢) طه : ١٣ ـ ١٤ .
(٣) جزء من حديث رواه البيهقى .
(٤) الزمر : ٦٥ .

وقد لخص القرآن الكريم مضمون رسالة محمد ﷺ ومنزلته عند ربه وبين الأساس الذى لابد منه لقبول الأعمال وذلك فى قول الله تعالى ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ (١) .

وعندما خرج أهل الكهف فارين بدينهم عرفنا القرآن الكريم بهم وبعقيدتهم فقال : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذاً شططا ﴾ (٢) .

وبعدما خرجوا من كهفهم أرسلوا أحدهم ليأتى لهم بطعام من المدينة وهم خائفون من اكتشاف أمرهم حتى لايكرهوا على العودة إلى الكفر فيخسروا دنياهم وآخرتهم ، وعلى لسانهم حكاية لما قالوا قال الله تعالى ﴿ ...... فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولايشعرن بكم أحدا ، إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا ﴾ (٣) .

لقد علموا أن التوحيد أساس الفلاح وأن الشرك أساس الخسران .

---

(١) الكهف : ١١٠ .
(٢) الكهف : ١٣ ـ ١٤ .
(٣) الكهف : ١٩ ـ ٢٠ .

وقد صور القرآن الكريم حال المشركين فى الدنيا ومآلهم فى الآخرة بما يظهر منه أنهم فى الضلال البعيد والخسران المبين ، قال تعالى ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين * يدعو من دون الله مالايضره ومالاينفعه ذلك هو الضلال البعيد * يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ (١) .

ويقول الله سبحانه ﴿ ... ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ (٢) .

ويقول عز من قائل ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون ﴾ (٣) .

ولهذا كانت أعمال الكافرين غير مقبولة وجهودهم غير مثمرة وسعيهم غير مشكور وكفى بذلك خسراناً ، يقول الله سبحانه : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ (٤) .

---

(١) الحج : ١١ - ١٣ .
(٢) الحج : ٣١ .
(٣) الزمر : ٢٩ .
(٤) إبراهيم : ١٨ .

وقال تعالى ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ (١) .

وقد أكد القرآن الكريم عدم فلاح المشركين والكافرين على اختلاف مللهم ونحلهم فقال ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ (٢) .

وكيف يكون مفلحاً فائزاً من كذب على الله ونسب إليه ما لا يليق بجلاله مما ينافي وحدانيته ويتعارض مع كماله ؟ .

وكيف يكون مفلحاً من يتقول على الله بغير دليل أو برهان ، ومن يخوض فيما ليس عنده علم فيه ويفعل ذلك فيما يتصل بذات الله تعالى وصفاته ﴿ قُتل الإنسان ما أكفره ﴾ (٣) .

إن الله قد يعطي بعض هؤلاء شيئا من متاع الدنيا ـ وهو متاع قليل حقير ـ ثم يعقبه عذاب غليظ ينزل بهم بسبب كفرهم وجرأتهم على الله عز وجل .

يقول الله تعالى عن هؤلاء ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو

---

(١) النور : ٣٩ ـ ٤٠ .
(٢) المؤمنون : ١١٧ .
(٣) عبس : ١٧ .

الغنى له مافى السموات ومافى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالاتعلمون * قل إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ (١) .

حكم الله عليهم بأنهم لايفلحون ويعنى ذلك أنهم لايفلحون فى الدنيا ولافى الآخرة « لأن الفلاح الحقيقى هو الذى ينشأ من مسايرة سنن الله الصحيحة المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وتنمية الحياة ودفعها إلى الأمام ، وليس هو مجرد الإنتاج المادى مع تحطيم القيم الإنسانية ومع انتكاس البشر إلى درك الحيوانية فذلك فلاح ظاهرى موقوت منحرف عن خط الرقى الذى يصل بالبشرية إلى أقصى ماتطيقه طبيعتها من الاكتمال » (٢) .

وعلى أساس التوحيد والشرك ينقسم الناس إلى حزبين ، حزب الله ، وحزب الشيطان ، فالموحدون هم حزب الله الذين يحبون لله ويبغضون لله ، ويسالمون لله ، ويعادون لله ، وقد كتب لهم الفلاح فقال سبحانه ﴿ **لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار رضى الله عنهم ورضوا**

---

(١) يونس : ٦٨ ـ ٧٠ .

(٢) في ظلال القرآن تفسير الآيات من سورة يونس .

عنه * **أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ (١) .

وأما المشركون فهم حزب الشيطان الذين جهلوا قدر الله ولم يقدروه حق قدره وأنساهم الشيطان ذكر الله بعدما تمت له السيطرة عليهم وراحوا يعبدون الشيطان من دون الله أو يعبدون آلهة صنعها الشيطان لهم من حجر أو بشر فاستحقوا بذلك الخسران قال الله تعالى : ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ (٢) .

إن التوحيد هو القضية الكبرى التى يقوم عليها وجود الإنسان ، إنها القضية التى ينبنى عليها كل شىء فى حياة الإنسان ، ولهذا فإن القرآن الكريم استمر ثلاثة عشر عاماً فى مكة وهو معنى بهذه القضية لايتجاوزها إلى شىء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ماتستحقه من البيان وأنها قد استقرت استقراراً مكينا ثابتاً فى قلوب المؤمنين .

وينبغى أن يكون معلوماً أن الإسلام لايهدف إلى تصوير نظرية فى العقيدة ولا إلى جدل لاهوتى عقيم يشغل الأذهان والأفكار ، إنما يهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق ليصيروا عبيداً له وحده بأرواحهم وضمائرهم ، وأن يكونوا عبيداً له فى سعيهم وحركتهم وتقاليدهم وشعائرهم وتعبيد واقعهم كله لسلطان الله الواحد الذى

---

(١) المجادلة : ٢٢ .

(٢) المجادلة : ١٩ .

ليس لغيره سلطان فى الأرض ولا فى السماء .

فالله هو الخالق وهو الرازق وهو المالك وهو صاحب القدرة المطلقة والقهر والسلطان الذى لايحد ، والله هو العليم بالغيوب والأسرار لاتخفى عليه خافية ، والله هو الذى يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار .

ولهذا وجب الاعتقاد بأنه وحده الحاكم فى حياة العباد ، وليس لغيره أمر ولانهى ولاشرع ولاحكم ولاتحليل ولاتحريم ، فهذا كله من خصائص الألوهية .

وعلى هذا يكون الخضوع له وحده ويكون الإلتجاء إليه وحده ، ويكون التوكل عليه وحده ، وتكون الإستعانه به وحده ، ويكون الخوف منه وحده ، ويكون السؤال له وحده لأن أحداً لايملك لأحد ضراً ولانفعا .

يقول ﷺ لعبد الله بن عباس رضى الله عنه : « ياغلام إنى أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لن ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا علي أن يضروك بشىء لن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » (١) .

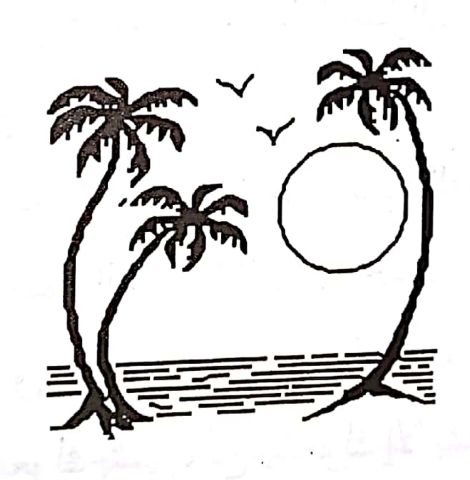
---

(١) رواه الإمام أحمد والحاكم والترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وفى رواية « احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » (١) .

والسعيد المفلح حقا من عاش على التوحيد ، ومات على التوحيد ، لما ورد عن رسول الله ﷺ « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » (٢) .

ولقوله ﷺ « من شهد أن لا إله إلا الله وشهد أن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار » (٣) .



---

(١) رواه الإمام أحمد والطبرانى فى الكبير .
(٢) رواه أبو داود والحاكم وصححه .
(٣) رواه مسلم .

الإيمان باليوم الآخر ينبوع الفلاح

إن قضية الإيمان باليوم الآخر هى أهم القضايا على الإطلاق بعد قضية الإيمان بالله وهى ملازمة لها ولاتنفصل عنها ، فمن عرف ربه وآمن به لزمه أن يؤمن باليوم الآخر الذى سيثاب فيه المحسن على إحسانه ويجازى فيه المسىء على إساءته .

والقسم الأول : خاسر هالك .

والقسم الثانى : مفلح فائز .

يقول الله تعالى : **﴿ إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾** (١) .

وهؤلاء – فى واقع الأمر – جهلة مهما حصلوا من علم الدنيا لأنهم اشتغلوا بالزائل الفانى وأهملوا الدائم الباقى .

ولذا فقد أمر الله ورسوله ﷺ أن يعرض عن هؤلاء ولايكترث بهم يقول سبحانه **﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾** (٢) .

---

(١) يونس : ٧ ، ٨ .

(٢) النجم : ٢٩ ، ٣٠ .

إن سبب خسران هؤلاء أنهم غفلوا عن الآخرة ولم يعملوا لها ولم يهتموا بعلمها ، فهم كما قال الله فى حقهم ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ (١) .

ومن اشتغل بأمر الدنيا وترك أمر الآخرة لن ينال من الدنيا إلا ماقدر له وسيحرم من نعيم الآخرة ، لأنه ـ ببساطة ـ لم يسع إليها ولم يعمل لها .

يقول الله تعالى ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا** ﴾ (٢) .

أما القسم الثانى وهم المؤمنون فإن هدفهم هو الآخرة بها آمنوا وصدقوا وإليها سعوا وعملوا فشكر الله سعيهم وتقبل أعمالهم ففازوا برضوان الله .

يقول الله تعالى ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾ (٣) .

وليس معنى ذلك أن المؤمن محروم من متاع الدنيا بل له منها نصيب بدليل قول الله تعالى ﴿ **كُلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا** ﴾ (٤) .

وبدليل أن الله علمنا أن نقول فى دعائنا ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ (٥) .

---

(١) الروم : ٧ .
(٢) الإسراء : ١٨ .
(٣) الإسراء : ١٩ .
(٤) الإسراء : ٢٠ .
(٥) البقرة : ٢٠١ .

فالمسلم يستمتع بالحلال الطيب من متاع الدنيا ويشاركه الكافر فى متاع الدنيا أما نعيم الآخرة فهو خالص لمن طلبه وسعى إليه من المؤمنين.

يقول الله تعالى ﴿ **يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين * قل من حَرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ (١) .

فالمقصود الأهم للمؤمن هو الآخرة والدنيا بالنسبة له وسيلة والمؤمن وهو يمر بالدنيا يدرك أنه يسير على الطريق نحو هدف ، وأن كل مافى هذه الدنيا حقير بإزاء مايسعى إليه من نعيم الآخرة .

ولن تكون لنا الآخرة إلا إذا طهرنا أنفسنا من الأدران وجردناها من الأهواء وسلكنا فى الأرض مسالك الأنبياء والصالحين وتخلقنا بأخلاقهم.

يقول الله تعالى ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً فى الأرض ولافسادا والعاقبة للمتقين** ﴾ (٢) .

إن طالب الجاه والرياسة والباحث عن الزعامة والعلو لنفسه ليس من أهل الآخرة ، وإن المفسدين فى الأرض المتكبرين على

---

(١) الأعراف : ٣١ ، ٣٢ .

(٢) القصص : ٨٣ .

الخلق ليسوا من أهل الآخرة .

وقد بين رسول الله ﷺ أن الزهد فى الدنيا يكسب العبد محبة الله ومحبة الناس .

عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس . فقال : « ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » (١) .

وإذا أصبح الإنسان والدنيا أكبر همه تشتت فكره وتمزقت نفسه ولم يأته من الدنيا إلا ما قسم الله له منها ، وإذا أصبح الإنسان والآخرة أكبر همه هدأت نفسه واستقر فكره وأتته الدنيا بأمر الله طائعة خاضعة .

واعلم أن الإنسان إذا أحب الدنيا وأنس بها وتعلق بملذاتها وشهواتها ثقل على قلبه مفارقتها وانشغل قلبه عن التفكير فى الآخرة ومافيها من حساب وثواب وعقاب وأدى به ذلك إلى إهمال الطاعات والوقوع فى المعاصى واتبع هوى نفسه وسعى فى إشباع شهواته لايردعه رادع ولايمنعه مانع .

لهذا كان الإيمان باليوم الآخر أعظم دافع إلى الطاعة وأعظم مانع عن المعصية ، وأمارة ذلك أن رسول الله ﷺ ربط بينهما فى

---

(١) حديث حسن رواه ابن ماجة وغيره .

كثير من أحاديثه الشريقة ، فأنت تجد المؤمن بالله واليوم الآخر يقول الحق ويكرم الضيف ويحسن إلى الجار ويكف عن الأذى .

يقول ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » (١) .

وفى رواية أخرى « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه » (٢) .

فإكرام الضيف ثمرة من ثمرات الإيمان بالله واليوم الآخر ، ورعاية الجار ومنع الأذى عنه ثمرة من ثمرات الإيمان بالله واليوم الآخر وحفظ اللسان حتى لايقول إلا خيراً أو يصمت عن اللغو والإثم ثمرة من ثمرات الإيمان بالله واليوم الآخر .

وصلة الرحم والبر بذوى القربى ثمرة من ثمرات الإيمان بالله واليوم الآخر ، وقد كان منهج التربية الرشيد الذى ربى عليه رسول الله أصحابه يعتمد ـ أساساً ـ على ترغيبهم فى رضوان الله وجنته وترهيبهم من عذاب الله وعقوبته .

والقرآن الكريم ملىء بآيات الترغيب فى الجنة وآيات الترهيب من النار كما أن السنة النبوية الشريفة سلكت فى هذا مسلك القرآن الكريم ، بل إننا لانغالى إذا قلنا إن الإسلام شيد بناءه الشامخ ودولته العظية ـ التى أعلت من شأن القيم والفضائل والأخلاق ـ على هذا

---

(١) متفق عليه . (٢) متفق عليه .

الأساس تقول السيدة عائشة رضوان الله عليها « كان أول مانزل من القرآن سور من المفصَّل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإيمان نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول مانزل لاتشربوا الخمر لقال الناس مانحن بتاركيها أبداً ولو نزل أول مانزل لاتقربوا الزنا لقال الناس مانحن بتاركيه أبداً » (١) .

لقد كان كافيا بعد هذه التربية أن يقول رسول الله ﷺ لأصحابه أثناء المعركة « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » (٢) .

لكى ينطلق المؤمنون سراعاً للقاء أعدائهم راغبين فى الجنة وقد تخلصوا من الجبن والخوف وأقبلوا على الآخرة .

من هنا نقول إن الإيمان باليوم الآخر ينبوع الفلاح لأنه منبع الفضائل كلها وأساس كل خلق كريم .

وحين يفقد هذا الإيمان أو يضعف تتحكم فى الإنسان شهواته وتسيطر عليه أهواؤه وحينئذ تنمحى الأخلاق فلاصدق ولا أمانة ولاعفاف ولاوفاء ولاإيثار ولاكرم ولاعفو ولاتسامح ، ولا حلم ولاصبر ولامروءة ولاشجاعة ولاعدل ولا إحسان .

وهذا مانشاهده فى مجتمعات غير المؤمنين ، إن الكثير من الفضائل قد انتهى من حياتهم ومابقى منها فهو على غير أساس سليم .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم .

إن كان لديهم نظام أو دقة فى المواعيد واحترام للوقت أو إتقان للعمل ونحو ذلك فلاينبغى أن نخدع بالمظهر ولنبحث عن الجوهر ، لنبحث عن أساس ذلك عندهم ولسوف نكتشف أن فلسفة المصلحة هى التى توجههم ، وحيثما انعدمت المصلحة فلامجال عندهم للالتزام بأى خلق ، هذا مايؤكده الواقع وماتنطق به ألسنتهم أحياناً ﴿ **وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾ (١) .

إن الخلق لايكون كريماً حقاً إلا إذا فعله صاحبه غير منتظر مكافأة من الناس وغير ساع إلى مصلحة دنيوية تعود عليه ، إنما الخلق الكريم حقا مايفعله صاحبه ابتغاء مرضاة الله ورغبة فى ثوابه وخوفاً من عقابه ، وذلك لايكون إلا مع الإيمان بالله واليوم الآخر ، ولهذا ربط القرآن الكريم بين هذا الإيمان وبين عمل الصالحات .

قال الله تعالى ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ (٢) .

إن الإيمان باليوم الآخر والطمع فى ثواب الله والخوف من عذاب الله يرفع الإنسان المؤمن إلى العطف على الفقراء والمساكين والبر باليتامى والمحتاجين والإحسان إلى الضعفاء والمحرومين ويدفع إلى التعالى على متاع الدنيا طمعاً فيما هو أعظم يقول الله تعالى ﴿ **إن**

---

(١) آل عمران : ١١٨ .

(٢) الكهف : ١١٠ .

الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا * ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً (١) فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ﴾ (٢) .

فانظر كيف فاض الخير من قلوبهم وجرت به أيديهم بسبب خوفهم مما فى هذا اليوم الآخر من عذاب ورجائهم الحصول على مافيه من ثواب الصالحات على تنوع أشكالها نتيجة منطقية للإيمان باليوم الآخر .

وهذا ماقرره القرآن على سبيل التأكيد بحيث لايبقى هناك مجال للظن بأن الأخلاق الكريمة بمعناها الصحيح يمكن أن يكون لها وجود بدون الإيمان بالله واليوم الآخر .

يقول الله تعالى ﴿ **إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لايشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون** ﴾ (٣) .

---

(١) عبوساً قمطريرا : أى يوماً ضيقاً طويل الشر والشدة .

(٢) الإنسان : ٥ ـ ١٢ .

(٣) المؤمنون : ٥٧ ـ ٦١ .

وإذا كان فعل الخيرات ثمرة من ثمرات الإيمان بالله واليوم الآخر على هذا النحو الذى بيناه فإنه يعتبر بحق سبيلاً إلى الفلاح ، وفى هذا يقول الله تبارك وتعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ (١) .



---

(١) الحج : ٧٧ .

النزول على حكم الله فلاح

يقرر الإسلام بوضوح أن الله سبحانه هو خالق الخلق ومالك الملك ، وأنه يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ، وهو صاحب السلطان المطلق على جميع الخلائق ، وهم جميعاً عبيده يتساوون فى العبودية ويتفاضلون بالطاعة والتقوى ، والطاعة تعنى تنفيذ أمر الله والنزول على حكمه فى كل مانزل به كتابه وماجاء به رسوله لافرق بين أمر بصلاة وأمر بجهاد وأمر بالشورى والعدل ، ولافرق بين نهى عن سرقة ونهى عن ظلم أو عدوان .

إن المؤمن لايكون مؤمناً حقاً إلا إذا نزل على حكم الله ورسوله فيما أحب وكره وعلى هذا كان الناس يدخلون فى الإسلام ، وعلى هذا كانت البيعة ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك » (١) .

وهذا ماصرح به القرآن الكريم فى قول الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن**

---

(١) رواه مسلم .

تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ (١) .

وفى الآية دليل على أن المؤمن مطالب بطاعة الله ورسوله بلاقيد أو شرط ، ومطالب كذلك بطاعة أولى الأمر مالم يأمروا بمعصية ، إذ أن طاعتهم ليست مستقلة بذاتها وإنما هى تابعة لطاعة الله ورسوله بمعنى أن طاعتهم واجبة مادامـوا طائعين لله ورسوله ومادامت أوامرهم موافقة لأمر الله ورسوله ، فإن أمروا بمعصية الله ورسوله ، فلاسمع لهم ولاطاعة ، وهذا هو العهد الذى قطعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه على نفسه يوم تولى الخلافة لقد خاطب الأمة قائلاً :

« أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

وهذا هو ماصرح به الحديث الشريف عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلاسمع ولاطاعة » (٢) .

وقد جعل القرآن الكريم النزول على حكم رسول الله ﷺ فى كل شئون الناس ومعاملاتهم وقضاياهم أمارة على الإيمان فقال سبحانه : **﴿ فلاوربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت**

---

(١) النساء : ٥٩ .

(٢) متفق عليه .

ويسلموا تسليما ﴾ (١) .

ولم يجعل الله سبحانه خياراً لأى مؤمن أو مؤمنة بإزاء أمر الله ورسوله سوى الطاعة فقال عز من قائل : **﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا ﴾** (٢) .

وقد صرح القرآن الكريم بأن الحكم قاصر على الله وهو شأنه وسلطانه ، وأن من حكم خلق الله بما يخالف حكم الله فقد نازع الله فى سلطانه ، وليس أمام الناس إلا سلوك أحد الطريقين :

إما طريق الشرك الذى يخضع الناس فيه لآلهة شتى يعبدونهم ويطيعونهم من دون الله أو مع الله مع أنه سبحانه لايرضى بأن يكون له شريك ولايقبل عمل مشرك .

وإما طريق التوحيد الذى يخضع الناس فيه لإله واحد ينزلون على حكمه ويطيعونه وحده ، يقول الله تعالى يحكى مقالة يوسف عليه السلام لصاحبيه فى السجن : **﴿ يا صاحبى السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾** (٣) .

---

(١) النساء : ٦٥ .

(٢) الأحزاب : ٣٦ .

(٣) يوسف : ٣٩، ٤٠ .

لا حكم لأحد سوى الله يعنى أن كل ماصدر عنه ونطق به كتابه أو علمه لرسوله هو الأساس الذى يكون الرجوع إليه وحده دون سواه فى شئون الحكم والسياسة والقضاء والاقتصاد وغيرها من شئون الناس لأن تنفيذ أمر الله طاعة ، والطاعة خضوع للآمر والخضوع عبادة ولاعبادة إلا لله وحده .

هكذا أمر ، والمؤمنون به يستجيبون لأمره ﴿ **أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ ثم بين أن هذا الدين القيم وهو الدين الحق ، وأن الانحراف عن ذلك الطريق اتباع للجهل ومسايرة للذين لايعلمون ، يؤكد هذه المعانى ويوضحها قول الله تعالى ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ (١) .

ومن ذلك يتضح أن المشروعية العليا فى دولة الإسلام وفى مجتمع المؤمنين هى لشريعة الله التى يجب أن تستمد منها القوانين وعلى أساسها يكون الدستور ، وأنه ليس أمام المؤمنين سبيل آخر إلا اتباع الهوى وهو سبيل غير المؤمنين ، وهو سبيل الجهلة الذين لايعلمون ، وإن زعموا أنهم على طريق العلم يسيرون ، هكذا قال الله وهو أصدق القائلين : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله**

---

(١) الشورى : ١٠ .

شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين ﴾ (١) .

وقد بين القرآن الكريم أن ترك بعض الأحكام يدخل صاحب في زمرة الفاسقين ويجلب المصائب .

يقول الله تعالى : **﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴾** (٢) .

كما بين الله سبحانه أن الإعراض عن حكم الله والنزول على حكم غير حكمه عودة لحكم الجاهلية ، وإن تسربلت برداء العلمانية فقال سبحانه : **﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾** (٣) .

ومن الكوارث التي تصيب الأمة بسبب إهمال حكم الله انتشار الفتن والمنازعات والحروب الطاحنة بين أبناء الأمة وشعوبها فيصبح بأسهم بينهم مصداقاً لما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ « .. ومالم تعمل أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم » (٤) .

وإذا كان النزول على حكم الله من دلائل الإيمان ، فإن

---

(١) الجاثية : ١٨ ، ١٩ .

(٢) المائدة : ٤٩ .

(٣) المائدة : ٥٠ .

(٤) جزء من حديث رواه ابن ماجة في سننه .

الإعراض عن حكم الله من دلائل النفاق ، يقول الله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا** ﴾ (١) .

وقد قارن القرآن الكريم بين فريقين من الناس ، كل منهما يقول إنه مؤمن مطيع لله ، ولكنه عند الاختبار الذى تعرض له كل منهما ظهر أن أحد الفريقين كاذب مخادع ، وأن الفريق الآخر محق وصادق ، لقد تم اختبار الفريقين بدعوتهما إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فحينئذ تولى الكاذبون وأعرضوا ولم يقبلوا هذا الحكم إلا إذا ظهرت لهم فيه مصلحة ، أما الصادقون فإنهم قبلوا حكم الله ورسوله على كل حال ورضوا به وسلموا له فكانوا من المفلحين الفائزين ، وأما الذين تولوا وأعرضوا فقد حكم الله عليهم بأنهم ليسوا من المؤمنين وبأنهم مرضى القلوب ، وبأنهم مرتابون فى صلاحية حكم الله ، وبأنهم يخافون من حكم الله أن يضر بهم وأنه فى غير صالحهم ، وبهذا كانوا من الظالمين ، وكل هذا ليس من سمات المؤمنين ، وإنما هو من خصال المنافقين .

يقول الله تعالى : ﴿ **ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم**

---

(١) النساء : ٦٠ ، ٦١ .

يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون * إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ (١) .

فالإعراض عن حكم الله ورسوله يعتبر من أبرز صفات المنافقين وهم فى الغالب يسلكون هذا المسلك لأنهم يخشون أن يظهر حكم الله باطلهم وظلمهم ويلزمهم بالحق وهم له كارهون .

هكذا كانوا فى عهد رسول الله ﷺ وهم كذلك فى كل زمان ومكان .

وبداهة فإنه « لاينبغى أن ننتظر من اللصوص أن يطبقوا حد السرقة ، ولا من الزناة أن يقيموا حد الزنا ، ولا من المخمورين أن يقيموا حد الخمر » (٢) .

وإنما كان النزول على حكم الله فلاح وكان الراضون به من المفلحين لأن حكم الله أحسن الحكم ﴿ **ومن أحسن من الله حكماً**

---

(١) النور : ٤٧ ـ ٥٢ .

(٢) كتاب عوائق في طريق الشريعة للمستشار د . على جريشة صـ٣٤ .

لقوم يوقنون ﴾ (١) .

والمسألة فى غاية البساطة والوضوح ، إنّ الله هو خالق الإنسان وهو العليم بما يصلحه ومايفسده ، والعليم بما يسعده وبما يشقيه ، وبداهة فإن المنهج الذى وضعه الله لعباده هو الذى يتفق مع طبيعتهم وفطرتهم التى خلقهم الله عليها ولايعلم ذلك علم إحاطة سواه سبحانه ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ (٢) .

من أجل هذا أطلق الله على دينه وصف دين الفطرة فقال سبحانه ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ (٣) .

وأيضا فإنه لو تركنا أمر تشريع الأحكام لفئة أو حزب أو جماعة من الناس ، فإن حال الأمة لن يستقيم ، ذلك لأن عمل الخلق لايخلو من نقص ، ولن يتجرد عن جهل أو هوى ، والخلق متصفون ــ حتماً ـ بالعجز والقصور وحينئذ سيأتى التشريع الذى يضعونه ناقصاً وقاصراً أو معيباً أو ظالما .

أما عندما يشرع الله لعباده فإن تشريعه ــ حتماً ــ يكون خالياً من تلك العيوب ، ويكون كاملاً كمال من شرعه ، ولننظر فى هذا

---

(١) المائدة : ٥٠ .
(٢) الملك : ١٤ .
(٣) الروم : ٣٠ .

المثال . يقول الله تعالى : ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون** ﴾ (١) .

هذا مثال يبين بوضوح أن الناس إذا اتبعوا أهواءهم ضلوا الطريق فربما كرهوا شيئاً وتركوه مع أن الخير في فعله والشر في تركه وهم لايعلمون ، وربما أحبوا شيئا وفعلوه مع أن الشر في فعله والخير في تركه وهم لايعلمون ، وهذا أمر مشاهد ومجرب ، ومعلوم أن الله هو عالم الغيب والشهادة ولاتخفى عليه خافية ، ولذا كان أمره ونهيه قائماً على العلم الشامل والحكمة البالغة ، ولابد أن تكون فيه مصلحة الإنسان وسعادته ، وعليه فإن فلاح الأمة مرتهن بتطبيقها لشرع الله ونزولها على حكمه .

بل إن حل جميع المشكلات والقضاء على كل الأزمات وإصلاح حال الأمة في كل شئونها مرتبط بقبولها لحكم الله وتنفيذه والاستجابة لأمر الله ورسوله .

يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ، واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون**

---

(١) البقرة : ٦

في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ [١] .

والفتنة إنما تصيب الأمة بسبب الإعراض عن حكم الله ومخالفة أمر الله ورسوله ، وذلك مانبه إليه القرآن الكريم وحذر من الوقوع فيه فقال الله سبحانه **﴿ ... فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾** [٢] .

اللهم احفظنا من الفتن وخذ بنواصينا إلى الحق وردنا اللهم إلى دينك رداً جميلا .



(١) الأنفال : ٢٤ ـ ٢٦ .

(٢) النور : ٦٣

إياك نعبد

إن صفوة الخلق وأئمة الهدى من رسل الله وأنبيائه أعلنوا جميعاً أنهم عبيد لله ، وحين أثنى الله عليهم وصفهم بهذا الوصف الكريم مما يدل على شرف هذه الصفة ، وأنها السبيل إلى العلا والنجاح والطريق إلى الفوز والفلاح .

وكذلك الحال بالنسبة للملائكة الأبرار فقد وصفهم الله سبحانه بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

كما وصفهم بالخضوع المطلق لسلطان الله وذلك في قوله سبحانه ﴿ **إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون** ﴾ (١) .

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على نبيه داود عليه السلام فقال :
﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب** ﴾ (٢) .

كما أثنى الله تبارك وتعالى على نبيه سليمان عليه السلام فقال :
﴿ **ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب** ﴾ (٣) .

ولفت الله الأنظار إلى نبيه أيوب عليه السلام ـ وهو يدعو ربه

---

(١) الأعراف : ٢٠٦ .
(٢) ص : ١٧ .
(٣) ص : ٣٠ .

خاشعاً متذللاً ـ فيقول فى كتابه : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ (١) .

وأما خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ومن جاء من ذريته من الأنبياء الكرام فهم أيضا عباد الله ، هكذا يعبر القرآن الكريم إذ يقول ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار** ﴾ (٢) .

وعيسى عليه السلام حين أنطقه الله تبارك وتعالى فى المهد مدافعاً عن أمه الطاهرة وكاشفاً عن حقيقته قال كما حكى القرآن الكريم : ﴿ **قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا * والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** ﴾ (٣) .

ولما احتج أهل مكة بقول النصارى فى عيسى وأرادوا أن يتخذوا من هذا القول مستنداً لهم فى عبادتهم للأصنام ، رد الله عليهم حجتهم الداحضة بقوله سبحانه ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون * وقالوا أآلهتنا خير أم هو ماضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل** ﴾ (٤) .

---

(١) ص : ٤١ .
(٢) ص : ٤٥ .
(٣) مريم : ٣٠ ـ ٣٣ .
(٤) الزخرف : ٥٧ ـ ٥٩ .

وقد أثبت القرآن الكريم أن الذين عرفوا الله حق المعرفة عبدوه حق العبادة وتشرفوا بهذه العبودية ونتيجة لهذا فقد جزاهم الله أحسن الجزاء ، وأما الذين لم يقدروا الله حق قدره ، فقد استكبروا عن عبادته ولذا فقد توعدهم الله بالعذاب الأليم .

يقول الله تعالى ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليما ولايجدون لهم من دون الله ولياً ولانصيرا** ﴾ (١) .

وسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم وصفه الله بهذا الوصف الكريم ـ وصف العبودية ـ فى مواضع متعددة من القرآن الكريم ، منها قول الله تبارك وتعالى ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** ﴾ (٢) .

ومنها قوله سبحانه ﴿ **وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا * قل إنما أدعو ربى ولاأشرك به أحدا** ﴾ (٣) .

وقد أضفى الله هذه الصفة الشريفة على بعض خلقه الذين تحلوا بالعقيدة الصحيحة والأخلاق الكريمة واستقاموا على أمر الله

---

(١) النساء : ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٢) الإسراء : ١ .
(٣) الجن : ١٩ ، ٢٠ .

وعبدوه حق عبادته فكانوا لا يرجون سواه ولا يخافون غيره يقضون نهارهم ساعين فى مرضاته ويقضون ليلهم قائمين أو ساجدين بين يديه فى خشوع وتذلل ، لقد كرمهم ربهم بأنه أضفى عليهم هذه الصفة الشريفة فقال سبحانه ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً * والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جنهم إن عذابها كان غراما * إنها ساءت مستقراً ومقاما** ﴾ إلى أن قال : ﴿ .... **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما * خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما** ﴾ (١) .

إنهم بالعبودية فازوا وبالعبودية أفلحوا مصداقاً لقول الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون** ﴾ (٢) .

ولما كان الله هو الذى خلق وهو الذى رزق وهو الذى مهد لنا الأرض وذللها وثبتها بالجبال الرواسى وأنزل لنا من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها فأنبتت من كل زوج بهيج ، وجعل السماء فوقنا سقفاً محفوظاً ، ومنحنا من النعم مالا يعد ولا يحصى كان هو المستحق وحده لأن يعبد .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى**

---

(١) الفرقان : ٦٣ ـ ٧٦ .

(٢) الحج : ٧٧ .

خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلاتجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ (١) .

يقول الإمام ابن كثير عند تفسير هذه الآية :(ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى ﴿ الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات فتبارك الله رب العالمين ﴾ (٢) .

ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره) .

يقول الشهيد سيد قطب « والأنداد التى يشدد القرآن فى النهى عنها لتخلص عقيدة التوحيد قد لاتكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذى كان يزاوله المشركون ، فقد تكون الأنداد فى صور أخرى خفية ، قد تكون بتعليق الرجاء بغير الله فى أى صورة أو فى الخوف من غير الله فى أي صورة أو فى الاعتقاد بنفع أو ضر فى غير الله فى أى صورة » .

عن ابن عباس قال « الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله ، وحياتك يافلان وحياتى ، ويقول لولا كلبة فلان لأتانا اللصوص البارحة ،

---

(١) البقرة : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) غافر : ٦٤ .

ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه ماشاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان ، هذا كله به شرك ، وفي الحديث أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : ما شاء الله وشئت ، قال « أجعلتني لله نداً » (١) .

ومفهوم من هذا أن العبودية هى تمام الخضوع لسلطان الله ، وليس مجرد أداء الصلاة أو الزكاة أو الصيام أو غيرها .

لأن أداء هذه الشعائر وإن كان صورة من صور العبودية ، فإن هذا الأداء لتلك التكاليف ليس نهاية المطاف ، وإنما هو بداية الطريق إلى العبودية بمعناها التام الشامل الذى يعنى الانقياد المطلق لأمر الله ونهيه ، والوقوف الكامل عند حدوده بحيث يصبح المؤمن الموحد متذوقاً معنى العبودية فيه مدركاً معنى التوحيد لله فمن تذوق معنى العبودية شرف بها واعتز ولم يرض عنها بديلاً وراح يتفانى فى طاعة معبوده حباً له كما قال ﷺ « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » (٢) .

وقد فهم هذا المعنى أحد الشعراء المسلمين فقال :

ومما زادنى شرفاً وتيهاً وكدت بإخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك ياعبادى وأن صيرت أحمد لى نبيا

ومن أدرك معنى توحيد الله سعد بالخضوع لله وانضم إلى

---

(١) الظلال طبعة دار الشروق جـ ١ صـ ٤٨ .

(٢) رواه الدارقطنى فى الأفراد ، وابن عساكر عن الحسن مرسلا .

موكب العابدين الصالحين الذين قال الله فيهم : ﴿ **التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** ﴾ (١) .

فالعبودية معرفة بالله وعبادة له وسلوك على مقتضى هديه ، والمسلم يظل فى ترق دائم فى هذه الثلاثة ، يقول الأستاذ سعيد حوى « وقد اتفق أهل السلوك إلى الله على أن التوحيد هو البداية والنهاية فما من ترق إلا وهو أثر التوحيد ويصب فى التوحيد ، واعتمدوا لتعميق التوحيد نوعاً من التدرج فى السير يزن به الإنسان قرب نفسه أو بعدها عن كمالات التوحيد .

فعندهم كى يتحقق الإنسان بكمالات التوحيد لابد وأن يمر بما يسمونه فناء فى الأفعال ، ثم الفناء فى الصفات ، ثم الفناء فى الأحكام ثم الفناء فى الإلتزام والعمل ، وكل ذلك لكى يكون موحداً خالصاً .

ومعانى هذه الاصطلاحات موجودة فى الكتاب والسنة ، وإنما ضل من ضل لجهل أو لعدم وضع الأمور فى مواضعها .

إن انتقال الإنسان من التوحيد العقلى إلى التوحيد الذوقى هو مضمون السير إلى الله ، فإن يحس قلبك أن كل شىء هو فعل الله وخلقه ﴿ **الله خالق كل شىء** ﴾ فهذا هو الفناء فى الأفعال ، وأن تحس فى ذاتك أنه لاحول لك إلا بالله ولاقوة لك إلا بالله ، وأن

---

(١) التوبة : ١١٢ .

تتخلق بما يجب التخلق به من أسماء الله الحسنى على مقتضى العبودية ، فذلك هو الفناء فى الصفات ، وأن يتذوق قلبك التسليم لأحكام الله وشريعته والتسليم لله فى حكمه فيك فذلك هو الفناء فى الأحكام ، وأن تبذل منتهى الجهد فى القيام بالتكاليف كلها عبودية لله صلاة وجهاداً وكسباً وغير ذلك ، فذلك هو الفناء فى الالتزام والعمل وذلك كله توحيد » (١) .

ومما يدل على أن العبودية معنى أشمل من الركوع والسجود ذكرها بعدها فى قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ (٢) .

فعطف العبادة على الركوع والسجود هو من عطف العام على الخاص .

يقول الشهيد سيد قطب :

« إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود وهما ركنا الصلاة البارزان ... ويثنى بالأمر العام بالعبادة وهى أشمل من الصلاة فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها ، كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله ، فكل نشاط الإنسان فى الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله ، حتى لذائذه التى ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب

---

(١) المستخلص فى تزكية الأنفس صـ ٢٥٤ .

(٢) الحج : ٧٧ .

له بها حسنات ، وماعليه إلا أن يذكر الله الذى أنعم بها وينوى بها أن يتقوى بها على طاعته وعبادته فإذا هى عبادات وحسنات ، ولم يتحول فى طبيعتها شىء ولكن تحول القصد منها والاتجاه .

ويختم بفعل الخير عامة فى التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبادة ، يأمر الأمة الإسلامية بهذا رجاء أن تفلح فهذه أسباب الفلاح ، العبادة تصلها بالله فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل ، وفعل الخير يؤدى إلى استقامة الحياة الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة الاتجاه » (١) .



---

(١) فى ظلال القرآن جـ٤ صـ٢٤٤٥ ط الشروق .

قد أفلح من زكاها

خلق الله تعالى النفس سوية مستقيمة على الفطرة القويمة كما قال تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ (١) .

وكما يدل عليه قوله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » (٢) .

وهذه المعانى تظهر بوضوح فى قول الله تعالى ﴿ **ونفس وماسواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾ (٣) .

ومعنى قوله ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ أى أرشدها إلى فجورها وتقواها وبين ذلك لها وهداها إلى ماقدر لها .

قال ابن عباس : يبين لها الخير والشر ، وقال سعيد بن جبير : ألهمها الخير والشر .

﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من

---

(١) الروم : ٣٠ .　　(٢) متفق عليه .　　(٣) الشمس : ٧ ـ ١٠ .

والرذائل ﴿ وقد
زكى نفسه بطاعة الله وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ أى أخملها وخذلها عن الهدى حتى فعل المعاصى وترك طاعة الله عز وجل، وركن إلى الدنيا وآثرها على الآخرة، فهو كقوله تعالى ﴿ قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى * بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ (١).

ويحتمل أن يكون المعنى، قد أفلح من زكى الله نفسه وقد خاب من دسى الله نفسه، ويدل لهذا المعنى مارواه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال: « اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ».

ومن تأمل وتدبر لن يجد تناقضاً بين المعنيين، فعلى الإنسان السعى والمحاولة وبذل الجهد ومن الله التوفيق والسداد، يظهر هذا واضحاً جلياً فى قوله تعالى حكاية لما قاله شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ (٢).

ويظهر كذلك فى قول الله تعالى ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ (٣).

---

(١) الأعلى: ١٤ - ١٧.
(٢) هود: ٨٨.
(٣) محمد: ١٧.

وحين نتلو بتدبر قول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبعِ خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم** ﴾ (١) .

يظهر لنا جلياً أننا مطالبون ببذل الجهد فى مخالفة الشيطان لأن اتباع الشيطان مهلك ، وسبب ذلك أنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، فإذا بذلنا الجهد فى مخالفته تفضل الله علينا وزكانا وبدون هذه المجاهدة لانستحق هذا الفضل .

يقول الشهيد سيد قطب فى تفسير هذه الآية :

« وإن الإنسان الضعيف معرض للنزعات عرضة للتلوث إلا أن يدركه فضل الله ورحمته حين يتجه إلى الله ويسير على نهجه ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم** ﴾ فنور الله الذى يشرق فى القلب يطهره ويزكيه ، ولولا فضل الله ورحمته لم يزك من أحد ولم يتطهر ، والله يسمع ويعلم فيزكى من يستحق التزكية ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد » (٢) .

وأما قوله تعالى ﴿ **فلاتزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾ (٣) .

---

(١) النور : ٢١ .
(٢) الظلال جـ ٤ صـ ٢٥٠٤ .
(٣) النجم : ٣٢ .

فإن معناه كما قال الإمام ابن كثير أى لا تمدحوا أنفسكم ولاتشكروها وتمنوا بأعمالكم ﴿ **هو أعلم بمن اتقى** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولايظلمون فتيلا** ﴾ (١) .

ولما كان اتباع الهوى من شأنه أن يورد الإنسان مورد الهلاك نهى الله عنه وحذر منه فقال سبحانه ﴿ **ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾ (٢) .

وقال رسول الله ﷺ « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » (٣) .

ولذا كان الفلاح والفوز فى نهى النفس عن الهوى كما قال تعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى** ﴾ (٤) .

وهوى النفس طاغوت من الطواغيت التى يعبدها البعض تهلكهم وتضلهم عن الطريق المستقيم ، يقول الله تعالى : ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لايهدى القوم الظالمين** ﴾ (٥) .

قال ابن تيمية فى رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « إن

---

(١) النساء : ٤٩ .

(٢) ص : ٢٦ .

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(٤) النازعات : ٤٠ ـ ٤١ .

(٥) القصص : ٥٠ .

أصل الهوى هو محبة النفس » .

ولهذا كان الإيثار سبيلاً إلى الفلاح لأنه انتصار على محبة النفس يقول الله تعالى فى وصف الأنصار والثناء عليهم : ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ (١) .

والمراد بتزكية النفس المؤدى إلى الفلاح هو تخليص النفس من نجاساتها ومن شهوانيتها الخاطئة وحيوانيتها الهابطة ومن منازعتها الربوبية وتخليصها من كل أنواع الظلمات .

ذلك لأن النفس البشرية قابلة لأن تتمرغ بالنجاسات المعنوية كالشرك الذى قال الله فى وصفه ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾ (٢) .

وهذا منتهى الهبوط والتدنى ، وهى قابلة لأن تتمرغ فى أوحال الشهوانية التى ترديها .

يقول الله تعالى ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** ﴾ (٣) .

والنفس قابلة لأن تتمرغ فى أنواع من طبائع الحيوان وتهبط إلى مستواه أو أدنى فى وضع لايليق بالإنسان .

(١) الحشر : ٩ .
(٢) الحج : ٣٠ .
(٣) مريم : ٥٩ .

قال الله تعالى ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ (١) .

وعند النفس قابلية لأن تنازع الله سبحانه فى مقامات تخص الربوبية كالكبر والعظمة .

يقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير** ﴾ (٢) .

ثم إن النفس تغشاها ظلمات تسببها المعاصى فلا ترى الحقائق كما هى وحينئذ ترى الخير شراً وترى الشر خيراً .

يقول الله تعالى ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾ (٣) .

يقول الأستاذ سعيد حوى :

« والتكليفات الإلهية تنصب على مافيه صلاح الفرد والمجموع ، ولا صلاح للفرد والمجموع إلا بتزكية نفس الفرد ، لذلك كان من أهم التكليفات الربانية مابه تزكو النفس .

ونقطة البداية والنهاية فى التكليف الربانى التوحيد ، فهو الذى يطهر النفس من أدران الشرك ومايستتبعه الشرك من عجب وغرور

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .

(٢) غافر : ٥٦ .

(٣) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤ .

وكبر وحسد وغير ذلك ، وبقدر مايتعمق التوحيد فى النفس تزكو وتتحقق بثمرات التوحيد فى القلب من صبر وشكر وعبودية وتوكل ورضا وخوف ورجاء وإخلاص وصدق .

لذلك كان التوحيد هو البداية والنهاية ، وقد شرعت العبادات لتعميق قضية التوحيد فى القلب ولها مع ذلك أكثر من حكمة .

فالصلاة : تعميق التوحيد لأنها تطهر النفس من التكبر على الله وتذكر النفس بالاستقامة على أمره ، يقول الله تعالى : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ...** ﴾ (١) .

والزكاة : كذلك تعمق التوحيد وتطهر النفس من البخل والشح وتُعَرِّف الإنسان أن المالك الحقيقى للأشياء هو الله .

والصوم : تعويد للنفس على ضبط شهوتى البطن والفرج .

والحج : تعويد للنفس على الترفع عن الرفث وعلى ترك الفسوق والجدال .

والأذكار : تعمق الإيمان والتوحيد فى القلب يقول الله تعالى : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ (٢) .

والذكر والتفكر توأمان فى تفتيح قلب الإنسان على آيات الله ولذلك كان التفكر وسيلة من وسائل تزكية النفس ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب**

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .

(٢) الرعد : ٢٨ .

﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ (١) .

والمحاسبة اليومية للنفس ومراقبة الله فى كل أمر تجعل الرجوع إلى الصواب سريعاً لذلك كانت المحاسبة من وسائل التزكية .

قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ (٢) .

ولايعمق معنى الخير فى النفس كأمرها به ولايعمق نفارها من الشر كنهيها عنه ، لذلك كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من وسائل تزكية النفس حتى إن الذين لايأمرون بالمعروف ولاينهون عن المنكر ليستأهلون اللعنة ، وهل هناك خسران للنفس أكثر من أن تكون ملعونة ؟ ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون ﴾ (٣) .

واربط بين قوله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ (٤) .

وبين قوله تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (٥) .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .
(٢) الحشر : ١٨ .
(٣) المائدة : ٧٨ ، ٧٩ .
(٤) الشمس : ٩ .
(٥) آل عمران : ١٠٤ .

لترى أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من وسائل الفلاح لأنه من وسائل تزكية النفس .

والجهاد كذلك لأنه نوع من تعميق الخير والمعروف وإضعاف المنكر وهو من وسائل التزكية بل هو من أرقاها ولايقبل عليه ـ فى الغالب ـ إلا زكى النفس .

ولأن التوبة تصحح مسار النفس كلما انحرفت وتردها إلى نقاط الانطلاق الصحيحة ولأنها هى التى تحول بين النفس وبين استمرارها فى الخطأ ، فهى إذن سبيل إلى التزكية والفلاح » (١) .

ومن وسائل السمو بالنفس وإلزامها سبيل الطهارة أن تترفع عن الزنا وما شاكله من الفواحش ، لأنه دنس وقذارة وهبوط وحقارة ، ومن أجل هذا كان حفظ الفروج من الفواحش من أخلاق أهل الصلاح وخصال أصحاب الفلاح .

وستكون لنا مع كل تكليف من هذه التكاليف وقفة تأمل باعتباره من سبل الفلاح أو أسسه أو غاياته أو أخلاق أهله وخصالهم التى بها صاروا من المفلحين الفائزين .



(١) من كتاب المستخلص فى تزكية الأنفس صـ ٣٠ ـ ٣٣ بتصرف يسير .

حى على الفلاح

هذا هو الشعار الذى شرعه الإسلام لينادى به المسلمون أن هلموا إلى الصلاة هلموا إلى الفلاح ، وقد ورد فى ذلك عن عبد الله بن زيد عبد ربه قال لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس ليضرب به الناس فى الجمع للصلاة ، وفى رواية ، وهو كاره لموافقته النصارى ، طاف بى وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً فى يده ، فقلت له ياعبد الله أتبيع الناقوس ؟ قال ماذا تصنع به ؟ قال : فقلت ندعو به إلى الصلاة ، قال أفلا أدلك على ماهو خير من ذلك ؟ ، قال فقلت له بلى ، قال : تقول الله أكبر - الله أكبر - الله أكبر - الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله - أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله - أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة - حى على الصلاة ، حى على الفلاح - حى على الفلاح ، الله أكبر - الله أكبر ، لا إله إلا الله .

ثم استأخر غير بعيد ثم قال تقول إذا أقيمت الصلاة « الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله حى على الصلاة حى على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله » .

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت ، فقال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألق عليه مارأيت فليؤذن به فإنه أندى صوتاً منك (١) .

قال فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به ، قال : فسمع بذلك عمر وهو فى بيته فخرج يجر رداءه يقول : والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى أرى ، قال : فقال النبى ﷺ : « فلله الحمد » (٢) .

فمن أراد الفلاح والفوز والنجاح بادر إلى الصلاة متى سمع النداء حى على الصلاة حى على الفلاح ، وذلك لأن الصلاة هى السمة البارزة التى تشهد بأن المرء ينطوى على عقيدة الإيمان وقد انضوى فى سلك أهل الأسلام ، وهى الركن الأهم بعد الشهادة بالتوحيد وتصديق الرسالة وهى الشرط الأول للانتماء إلى أمة الإسلام ، يقول رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس شهادة : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » (٣) .

---

(١) أندى منك صوتاً أى أرفع أو أحسن ، ويؤخذ منه استحباب كون المؤذن حسن الصوت.

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والترمذى وقال حسن صحيح ، وكذا رواه ابن خزيمة .

(٣) متفق عليه .

وفى كل ماقرره القرآن الكريم عندما يتعرض لبيان آثار الإيمان فإن أول أثر عملى يذكر هو إقامة الصلاة ، يقول ربنا سبحانه : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾ (١) .

وما يكاد القرآن الكريم يعدد صفات المؤمنين ويمتدح أعمالهم الصالحة إلا وتكون الصلاة من بينها فهى العمل اللازم للمتقين الأبرار أولى الألباب والمخبتين عباد الرحمن .

يقول ربنا سبحانه : ﴿ **الم * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ **وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ماأصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ (٣) .

والصلاة صلة بين العبد وربه تشعر العبد بمعصية الله له فيمتنع من ارتكاب المعاصى والمنكرات ، يقول الله تعالى ﴿ **أُتل ماأوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء**

---

(١) الأنفال : ٢ ـ ٤ .

(٢) البقرة : ٢ ، ٣ .

(٣) الحج : ٣٤ ، ٣٥ .

والمنكر ﴾ (١) .

يقول ابن كثير « إن الصلاة فيها ثلاث خصال ، فكل صلاة لايكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة : الإخلاص والخشية وذكر الله ، فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه » (٢) .

فهى إذن وقاية من المعاصى والذنوب ، وهى مع ذلك علاج لمحو الذنوب وهى تطهر النفس من أدرانها ، يقول الرسول ﷺ : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يُبقى ذلك من درنه شيء ؟ قالوا : لايبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » (٣) .

ولكى تؤتى الصلاة ثمارها المرجوة من تطهير القلب من أثر المعاصى وغفران الذنوب وتفريج الكروب ووقاية صاحبها من فعل المنكرات وغير ذلك ، ينبغى أن تتم على الوجه الأكمل بمعنى أن المطلوب ليس هو مجرد أداء الصلاة ولكن المطلوب إقامة الصلاة مع حضور القلب وخشوع الفؤاد والجوارح ، وبهذا تصبح الصلاة سبيلاً إلى الفلاح . قال الله تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ (٤) .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .

(٢) تفسير الآية فى ابن كثير .

(٣) متفق عليه .

(٤) المؤمنون : ٢، ٣ .

ومادام المؤمنون المتقون يقيمون الصلاة على هذا الوجه فإن الله يمنحهم الهدى والفلاح ، وقد قال سبحانه فى شأنهم ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ (١) .

والصلاة هى الوسيلة العظمى فى تزكية النفس ، وهى فى الوقت نفسه علم وميزان على تزكية النفس ، فهى وسيلة وغاية فى آن واحد ، وهى تعميق لمعانى العبودية والتوحيد والشكر ، وهى ذكر وقيام وركوع وسجود وقعود ، وإقامتها قطع لدابر الكبر والتمرد على الله واعتراف له بالربوبية والتدبير ، وإقامتها على كمالها وتمامها قطع لدابر العجب والغرور ، بل قطع لدابر المنكر كله والفحشاء كلها ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ (٢) .

وإنما تكون الصلاة كذلك إذا أقيمت بأركانها وسننها وتحقق صاحبها بآداب الظاهر والباطن ، ومن آداب الظاهر أداؤها كاملة بالجوارح ، ومن آداب الباطن الخشوع فيها ، والخشوع هو الذى يجعل للصلاة الدور الأكبر فى التطهير ، ولذا كان الخشوع هو أول علامات المفلحين ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ (٣) .

إن الخشوع هو المظهر الأرقى لصحة القلب ، وعلم الخشوع مرتبط بعلم تصفية القلوب من أمراضها وتحقيقها بصحتها ، وذلك

---

(١) البقرة : ٥ .
(٢) العنكبوت : ٤٥ .
(٣) المؤمنون : ١ ، ٢ .

باب واسع ، ولذلك فإن علماء الآخرة يبدأون بتلقين السالك إلى الله الذكر والحكمة حتى يحيا قلبه ، فإذا حيى قلبه نقوه من الأوصاف الذميمة ، ودلوه على الأوصاف الحميدة ، وهنا يأتى تعويد قلبه على الخشوع من خلال الحضور مع الله والتأمل فى المعانى ، ولكل ذلك طريقه المشروع عندهم » (١) .

ولأن الصلاة من الأمور الكبرى التى تحتاج إلى هداية خاصة سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعله هو وذريته مقيماً لها فقال فى دعائه كما حكى القرآن الكريم ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء** ﴾ (٢) .

والصلاة فى جماعة تُعَوِّدُ الإنسان على النظام وتقضى على الإحساس بالفردية والأنانية وتنمى فى الإنسان روح الانتماء للجماعة والارتباط بها حتى يصير الفرد مع الجماعة كالعضو من الجسد ، كما جاء فى وصف رسول الله ﷺ لمجتمع المؤمنين « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (٣) .

كما أن الصلاة تُعَوِّدُ الإنسان على الانضباط والحرص على المواعيد وتقوى بدنه ، وتذهب عنه الهم والحزن وتجعله قوياً فى مواجهة الشدائد .

---

(١) المستخلص في تزكية الأنفس صـ ٣٤ ومابعدها بتصرف يسير .

(٢) إبراهيم : ٤٠ .

(٣) متفق عليه .

يقول الله تبارك وتعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾ (١) .

وقد ورد أن رسول الله ﷺ كان إذا حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة » (٢) .

ولأهمية الصلاة فى الإسلام ورد أنها أول مايحاسب عليه العبد عن عبد الله بن قرط قال : قال رسول الله ﷺ « أول مايحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله » (٣) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولانجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبَىّ بن خلف » (٤) .

قال الإمام ابن القيم : تارك المحافظة على الصلاة إما أن يشغله ماله أو ملكه أو رياسته أو تجارته ، فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون ، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون ، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان ، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أبى بن خلف » .

---

(١) البقرة : ١٥٣ .

(٢) رواه ابن جرير عن حذيفة .

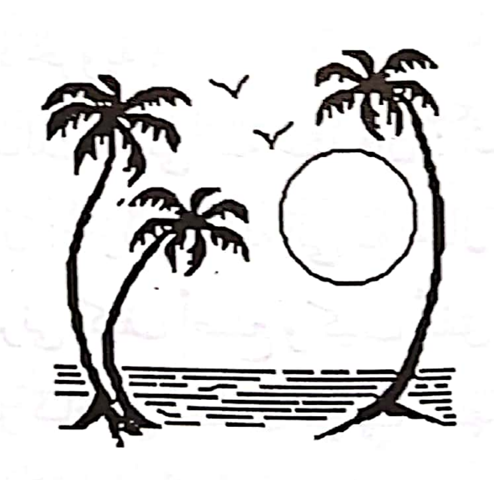
(٣) رواه الطبرانى .

(٤) رواه أحمد وابن حبان والطبرانى .

وإقامة الصلاة من وسائل الحصول على رحمة الله ، قال تعالى ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ (١) .

وهى كذلك توصل أصحابها إلى الجنة ، قال تعالى ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ (٢) .

وكفى بذلك فلاحاً وفوزاً ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ...** ﴾ (٣) .



(١) التوبة : ٧١ .
(٢) المؤمنون : ٩ ـ ١١ .
(٣) آل عمران : ١٨٥ .

الزكاة فلاح وتطهير

كلمة الزكاة مأخوذة من معنى النماء والطهارة والبركة ، فهى تزكى النفس وتنميها بالخيرات ، قال الله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ (١) .

أى خذ أيها الرسول من أموال المؤمنين صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهى التطوع ﴿ **تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ أى تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء والبائسين ومايتصل بذلك من الرذائل ، وتزكى أنفسهم بها أى تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنى ذو مال كثير وذو أهل ومال وحاضرة (٢) فأخبرنى كيف أصنع وكيف أنفق ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : « تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك وتصل أقرباءك وتعرف حق المسكين والجار والسائل » (٣) .

---

(١) التوبة : ١٠٣ .

(٢) أى جماعة تنزل للضيافة .

(٣) رواه أحمد بسند صحيح .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رجل يارسول الله : أرأيت إن أدى الرجل زكاة ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ « من أدى زكاة ماله ذهب عنه شره » (١) .

وإن الزكوات والصدقات والإنفاق فى سبيل الله من أقوى الوسائل فى تزكية النفس ، لأن النفس مجبولة على الشح ، وهو رذيلة ينبغى تطهير النفس منها .

يقول الله تعالى ﴿ **وأحضرت الأنفس الشح** ﴾ (٢) .

ومادام الشح موجوداً فى النفس فإنه يحول بينها وبين الوصول إلى الفلاح ، ولهذا فإن الله تبارك وتعالى عندما أثنى على الأنصار ووصفهم بالمفلحين ذكر فى سبب ذلك أنهم يؤثرون على أنفسهم وأنهم انتصروا على هذا الشح الذى جبلت عليه النفس .

قال تعالى : ﴿ **والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ (٣) .

أى من سلم من الشح فقد أفلح وفاز ومن لم يسلم منه هلك وخسر ، وقد ثبت أن الشح من المهلكات ، يقول رسول الله ﷺ : « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب

---

(١) رواه الطبرانى في الأوسط .
(٢) النساء : ١٢٨ .
(٣) الحشر : ٩ .

المرء بنفسه » (١) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لايحب الفحش ولاالتفحش ، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » (٣) .

وروى عن سعيد بن جبير عن أبى الهياج الأسدى قال : كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول : اللهم قنى شر نفسى لايزيد على ذلك فقلت له (٤) ، فقال إنى إذا وقيت شر نفسى لم أسرق ، ولم أزن ، ولم أفعل شراً ، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه » (٥) .

ولافلاح أعظم من دخول الجنة والنجاة من النار وذلك من ثمرات الزكاة وثوابها .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه أحمد وأبو داود والنسائى .
(٤) أى سألته عن ذلك .
(٥) رواه ابن جرير .

يقول الله تعالى : ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى * لايصلاها إلا الأشقى * الذى كذب وتولى * وسيجنبها الأتقى * الذى يؤتى ماله يتزكى ﴾ (١) .

ويقول الله تعالى ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون * آخذين ماآتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الليل مايهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ (٢) .

جعل الله أخص صفات الأبرار الإحسان ، وبيَّن أن مظهر إحسانهم يتجلى فى القيام من الليل والاستغفار فى السحر تعبداً لله وتقرباً إليه كما يتجلى فى إعطاء الفقير حقه رحمة به وحنواً عليه ، ومنحهم الله بذلك الجنات التى يتنعمون فيها .

وبما أن إيتاء الزكاة رحمة من الأغنياء بالفقراء فلأجل ذلك استحقوا رحمة الله لأنه سبحانه يرحم الرحماء من عباده ، يقول الله تعالى ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (٣) .

أى أن الجماعة التى يباركها الله ويشملها برحمته هى الجماعة التى تؤمن بالله ويتولى بعضها بعضا بالنصر والحب وتأمر بالمعروف

---

(١) الليل : ١٤ ـ ١٨ .
(٢) الذاريات : ١٥ ـ ١٩ .
(٣) التوبة : ٧١ .

وتنهى عن المنكر وتصل مابينها وبين الله بالصلاة وتقوى الصلة فيما بين أفرادها بإيتاء الزكاة .

وقد جعل الله تعالى إيتاء الزكاة شرطاً وغاية من غايات التمكين فى الأرض ، فقال عز من قائل : ﴿ ... **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ (١) .

وإذا كان التوحيد أساس الفلاح فإن التوحيد باللسان قليل الجدوى ، ومن أهم أمارات التوحيد الصادق أن لايبقى للموحد محبوب سوى الواحد الأحد ، فإن المحبة لاتقبل المشاركة ، ولذا كان الامتحان بإنفاق المال الذى هو محبوب للنفس فمن جاد به دل ذلك على صدق حبه لله ، وكلما قوى التوحيد فى القلب قوى حب البذل والعطاء حتى إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه تصدق لتجهيز جيش العسرة بجميع ماله ، فلما سأله رسول الله ﷺ « وماذا أبقيت لأهلك ؟ » قال : تركت لهم الله ورسوله .

والصدقة إذا أعطاها المنفق سراً كانت أبعد عن الرياء والسمعة وكانت أقرب إلى القبول ، قال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير فى سر » (٢) .

وفى الحديث المشهور عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى

---

(١) الحج : ٤٠ ، ٤١ .

(٢) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم .

ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله ... » وذكر منهم « ..... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه .... » (١) .

وقد كان البعض يبالغ فى إخفاء الصدقة ، وقد اجتهدوا فى ذلك واتبعوا سبلاً متعددة حتى لايعلم الفقير من أعطاه ، وكانوا يفعلون ذلك احترازاً من الرياء لأن الشهرة إذا كانت مقصودة تحبط العمل والزكاة إزالة للبخل وإضعاف لحب المال فى النفس ، وحب الجاه والشهرة أشد استيلاء على النفس من حب المال ، وكل واحد منهما مهلك فى الآخرة .

ولابأس بإظهار الصدقة إذا لم يكن القصد هو الشهرة ، كأن يقصد اقتداء الغير به أو يكون السائل قد سأل على ملإ من الناس فلاينبغى أن يترك التصدق عليه خوفاً من الرياء بل يتصدق عليه ويحفظ سره بقدر الإمكان .

وكما أن الرياء يحبط أجر الصدقة فإن المن على الفقير أو إيذاءه يحبط ثواب الصدقة كذلك ، يقول الله تعالى : ﴿ **قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم * يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب**

(١) متفق عليه .

فأصابه وابل فتركه صلداً لايقدرون على شيء مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين ﴾ (١) .

وأصل المن من أحوال القلب التى يظهر أثرها فى اللسان والجوارح وأصله أن يرى المتصدق فى نفسه أنه قد أحسن إلى الفقير وأنعم عليه ، ولو أنصف الغنى لرأى فى نفسه أن الفقير قد أحسن إليه بقبول حق الله عز وجل منه ، وكان سبب طهرته ونجاته من النار .

وقد بين الله سبحانه أن ترك الإنفاق فى سبيل الله مؤد إلى التهلكة ، يقول الله تعالى : **﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾** (٢) .

يقول الإمام ابن كثير : ومضمون الآية الأمر بالإنفاق فى سبيل الله فى سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات ، وخاصة صرف الأموال فى قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم .

والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده ، والزكاة وسيلة النماء الحقيقية وليس الربا كما يتوهم البعض ، وهى سبيل إلى الفلاح فى الدنيا وفى الآخرة .

يقول الله تعالى : **﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون *‏**

---

(١) البقرة : ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢) البقرة : ١٩٥ .

وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ (١) .

أى يضاعف الله بالزكاة والصدقة مال المنفق وثوابه فيحصل على خيرى الدنيا والآخرة ، وأما المرابى الذى يظن أن ماله يزيد بالربا فقد أكد الله سبحانه وهو أصدق القائلين أن الربا لايربو عند الله وإنما يكون سبباً فى المحق كما قال الله فى الآية الأخرى ﴿ **يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم** ﴾ (٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفا » (٣) .

وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « من تصدق بعدل (٤) تمرة من كسب طيب ولايقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه (٥) حتى تكون مثل الجبل » (٦) .

---

(١) الروم : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) البقرة : ٢٧٦ .

(٣) متفق عليه .

(٤) أى بقيمة تمرة .

(٥) الفَلُوّ بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو : المُهر .

(٦) متفق عليه .

لا فلاح إلا بصبر

لقد ذكر الله الصبر فى القرآن الكريم فى نحو من تسعين موضعاً وأضاف إليه أكثر الخيرات ورقى الدراجات ، وجعلها ثمرة له ، وهو لهذا أصل عظيم من أصول الإيمان ، وهو أعظم عطاء يعطيه الله سبحانه لعبد من عباده .

يقول رسول الله ﷺ : « ما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » (١) .

ولأن الصبر أعظم العطاء كان الجزاء عليه أعظم الجزاء ، فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر .

يقول الله تعالى ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ (٢) .

والصابرون يرعاهم الله ويحفظهم ويكون فى معيتهم ، ومن كان الله فى معيته سعد وأفلح .

يقول الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾ (٣) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) الزمر : ١٠ .

(٣) البقرة : ١٥٣ .

ولأن الله مع الصابرين فسيكون النصر حليفهم ويرد الله عنهم كيد عدوهم فلايضرهم كيده أو تآمره .

يقول الله تعالى ﴿ .... **وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط** ﴾ (١) .

بل إن الصبر من أهم أسباب النصر ، إذا به ترجح كفة المؤمنين وبدونه تطيش كفة الكافرين ويصبح وزن الرجل المؤمن الصابر أعظم وزناً وقدراً من عشرة من الكافرين .

يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى حرض المومنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون** ﴾ (٢) .

ومن هنا وجدنا القلة المؤمنة الصابرة تغلب الكثرة الكافرة حتى جرى هذا مجرى السنة الكونية التى وعاها المؤمنون وعملوا بمقتضاها وتصرفوا على أساسها فقالوا ـ كما حكى القرآن الكريم ـ ﴿ **.... كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ (٣) .

إن الصبر يمنح المؤمنين قوة يتحصنون بها فى أوقات الشدائد والمحن فلايضعفون أمام الأعاصير ، ولاتخيفهم قوة أعدائهم ولايعرف الوهن طريقه إلى قلوبهم .

---

(١) آل عمران : ١٢٠ .
(٢) الأنفال : ٦٥ .
(٣) البقرة : ٢٤٩ .

يقول اللـه تعالى ﴿ **وكأين من نبى قاتل معـه ربيون كثير فـما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين** ﴾ (١) .

إنهم مـا أحبـوا الله ووثقوا فى وعـده أحبـهم الله ومنحهـم قوة وثباتاً وشـعوراً بالعزة وتسـامياً فوق الجـراح والآلام فما قـبلوا الهوان ولارضوا بالذل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

يقول الحسن البـصرى : الصبر كنز من كنوز الخـير لايعطيه الله إلا لعبد كريم عنده .

تعريف الصبر : وقد عرفـوا الصبر بأنه عبـارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة الهوى .

وعلى هذا فـهـو من خـواص الإنسـان لايتـصـور وجـوده فى الملائكة ولا فى البهائم لأن الملائكة لم تسلط عليـهم شهوة تصرفهم عن الشوق إلى جلال الربوبية ، وأما البهـائم فلأنها ناقصة والشهوات غالبة عليها ولايوجد شىء يقابلها .

أقسام الصبر :

ينقسم الصبر بحسب محله إلى قسمين : بدنى ونفسانى .

أما البدنى : فهو مثل تحمل مشاق البـدن والقيام بالأعمال الشاقة من العبادات وغيرها .

---

(١) آل عمران : ١٤٦ .

وأما النفساني : فهو الصبر عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى، وهو يختلف باختلاف مايتعلق به .

وأكثر أخلاق الإيمان داخلة فى الصبر ، ويظهر ذلك مما يأتى :

الصبر عن شهوتى البطن والفرج : يسمى عفة

والصبر فى مواجهة الأعداء فى المعركة : يسمى شجاعة .

والصبر إن كان فى كظم الغيظ : يسمى حلما .

والصبر إن كان فى فضول العيش : يسمى زهداً

والصبر إن كان على عطاء قليل وحظ يسير : يسمى قناعة .

وذلك يعنى أن الإنسان لايستغنى عن الصبر بحال من الأحوال لأن جميع مايلقاه الإنسان لايخرج عن أمرين :

أحدهما : يوافق الهوى بحيث يطلبه الإنسان ويرغب فيه

وثانيهما : يخالف الهوى بحيث يكرهه الإنسان ويرغب عنه .

وبيان ذلك فيما يلى :

الأول : مايوافق الهوى كالصحة والسلامة والجاه والمال وكثرة الأهل والعشيرة وجميع ملاذ الحياة الدنيا ، وهى الأمور التى جاءت فى قول الله تعالى ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** ﴾ (١) .

(١) آل عمران : ١٤ .

وفى قوله تعالى : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين** ﴾ (١) .

والإنسان محتاج إلى الصبر فى جميع هذه الأمور حتى لايركن إليها ولاينهمك فى التلذذ بها ، وعليه أن يرعى حق الله فيها كأن ينفق المال فى وجوه الخير ولايذل نفسه فى طلبه ، وكأن يسخر صحته وقوته فى الدفاع عن الحق ومنع الظلم ... وهكذا .

وبالصبر يضبط الإنسان نفسه وسلوكه فلاينهمك فى الملذات والشهوات والاستمتاع بها حتى لاينشغل عن طاعة الله ولهذا قال الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾ (٢) .

الثانى : مايخالف الهوى .

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) الصبر على الطاعة بمعنى المواظبة عليها ، وذلك لأن النفس بطبيعتها تنفر من العبودية ، ولذلك أسباب : كالكسل الذى يكون سبباً فى ترك الصلاة أو تأخيرها ، وكالبخل الذى يكون سبباً فى ترك

---

(١) التوبة : ٢٤ .
(٢) المنافقون : ٩ .

الزكاة ومنع الصدقة ويكون الكسل والبخل معاً سببين فى ترك الجهاد والحج ، ولولا الصبر ماقام أحد بالطاعات ولا واظب عليها .

(٢) الصبر عن المعاصى ، والعبد فى أشد الاحتياج لذلك لأن المعاصى محببة إلى النفس الأمارة بالسوء ، ولكى يقوى الإنسان على ترك المعاصى يحتاج إلى مجاهدة وصبر .

(٣) الصبر على المصائب التى تصيب الإنسان فى نفسه أو ماله وسائر أنواع البلاء ، والصبر على ذلك من أعلى المقامات لأن سنده اليقين والرضا بقضاء الله وقدره .

وقد بشر الله الصابرين على المصائب وأنواع البلاء برحمته الواسعة وشهد لهم بالهداية فقال سبحانه : ﴿ **ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات * وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ (١) .

هذا وإن جزاء من صبر على البلاء هو الجنة لما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله عز وجل قال : إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه (٢) فصبر ، عوضته عنهما الجنة » (٣) .

---

(١) البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

(٢) أى عينيه .

(٣) رواه البخارى .

ولما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى ما لبعدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسب إلا الجنة » (١) .

وذلك يعنى أن عظم البلاء مع الصبر عليه خير للإنسان ، وقد وردت فى ذلك أحاديث كثيرة .

منها قول النبى ﷺ « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » (٢) .

ومنها قوله ﷺ « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ اللهم أجرنى فى مصيبتى وأعطنى خيراً منها إلا فعل الله به ذلك » (٣) .

وقريب من هذا القسم الأخير الصبر على أذى الناس ويكون بترك الرد على الأذى ، وهو من أعلى المراتب ، ولهذا قال الله تعالى ﴿ **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾ (٤) .

وقد خاطب الله تعالى رسوله ﷺ بقوله ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم**

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .
(٣) رواه مسلم .
(٤) آل عمران : ١٨٦ .

لهو خير للصابرين ﴾ (١) .

آداب الصبر :

للصبر آداب كثيرة ....

منها الاسترجاع عند المصيبة بأن يقول « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

ومنها سكون اللسان والجوارح فلايقول مايغضب الله ولا يأتي بأفعال تغضب الله ، ولكن لابأس بالبكاء فقد ورد أن رسول الله ﷺ بكى عند موت ولده إبراهيم فلما سئل فى ذلك قال : « إن ذلك من الرحمة ، والرحمة يودعها الله فى قلوب عباده المؤمنين » (٢) .

وقد قال بعض الحكماء : الجزع لايرد الفائت ولكن يسر الشامت ، وإذا كان الصبر على هذا النحو داخلاً فى كل خصال الخير ولاغنى للإنسان عنه بحال من الأحوال ، وإذا كان عدة للنصر وحصناً من الزلل وطريقاً إلى الجنة وملاذاً لأولياء الله وأحبابه ، وقوة يحتمى بها المؤمن فى مواجهة الشدائد والمحن ، فلاعجب إذا ماجعله القرآن من موجبات الفلاح .

يقول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا

---

(١) النحل : ١٢٦ .

(٢) متفق عليه .

واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [1] .

وقد بين الله تبارك وتعالى أن من شروط الفلاح والنجاح والسلامة من الهلاك والخسران أن تتحقق فى الإنسان صفات ، أهمها الإيمان والعمل الصالح ، والاستمساك بالحق والتواصى به والتحصين بحصن الصبر ، والتواصى به ، فقال ربنا سبحانه :

﴿ والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [2] .



---

(1) آل عمران : ٢٠٠ .

(2) سورة العصر .

فعل الخيرات سبيل إلى الفلاح

المسارعة فى الخيرات والتنافس فى فعلها صفة أساسية من صفات عباد الله الصالحين ، وهم يفعلون ذلك استجابة لأمر الله ورغبة فى الحصول على رضاه ، وطمعاً فى جنته ورضوانه وخوفاً من عقابه ، ولأنهم كذلك فإن الله تبارك وتعالى يقبل عملهم ، ويشكر لهم سعيهم ويجازيهم خير الجزاء .

وبعدما حكى القرآن الكريم خبر الذين غضب الله عليهم من أهل الكتاب ، قال فى حق من آمن منهم : ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين * ومايفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين** ﴾ (١) .

يقول الإمام ابن كثير : (والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم)

أى أن هؤلاء وإن كانوا من أهل الكتاب غير أنهم ليسوا

---

(١) آل عمران : ١١٣ ـ ١١٥ .

كالآخرين الذين ذمهم الله تبارك وتعالى فى الآيات السابقة فهؤلاء قاموا بأمر الله وطبقوا شرعه واتبعوا نبيه محمداً ﷺ ، وهم يقيمون الصلاة متهجدين يتلون القرآن فى صلواتهم ، وهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، ولهذا كله قرر الله تبارك وتعالى أنهم من الصالحين ، وأنه سبحانه سيتقبل أعمالهم وسيجزيهم عنها خير الجزاء ، والله سبحانه عليم بالمتقين لاتخفى عليه خافية ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملا .

إن التسابق فى فعل الخير مأمور به وهو أحسن مجال للتنافس بين الذين يريدون وجه الله ، وهذا مانفهمه من قول الله تعالى : ﴿ **ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شىء قدير** ﴾ (١) .

وهو مانفهمه أيضا من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ١٤٨ .

(٢) المائدة : ٤٨ .

أى لاتتبعوا أهواء الذين كفروا من أهل الكتاب ، والتزموا بما جاءكم من عند الله فهو الخير وهو الحق الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكونوا على يقين أنكم جميعاً راجعون إلى الله وسيجازى أهل الخير خيراً ، وأهل السوء سوءاً .

إن المسارعة فى فعل الخيرات يستتبع فضل الله وبره وإحسانه ، وفعل الخيرات من أهم أسباب إجابة الدعاء .

فهذا نبى الله زكريا عليه السلام كبرت سنه ووهن عظمه واشتعل رأسه شيباً ومعه زوجة عاقر ، لكنه عندما اشتاق للولد ودعا ربه قائلاً : ﴿ **رب لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين** ﴾ استجاب الله دعاءه على الفور ورزقه بالولد الصالح ، وأصلح له زوجه وذكر الله أسباب ذلك ليكون عبرة وذكرى لكل عبد منيب .

إن من أهم الأسباب أن زكريا وزوجه كانا يسارعان فى الخيرات ، يقول الله تعالى : ﴿ **فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهبا وكانوا لنا خاشعين** ﴾ (١) .

وإن الذى يدفع الصالحين من عباد الله إلى المسارعة فى فعل الخيرات أنهم على يقين بأنهم راجعون إلى الله وسيقفون بين يديه للحساب وهم يرجون أن يكون مآلهم الحصول على رضوان الله

---

(١) الأنبياء : ٩٠ .

والنجاة من عذاب الله .

وقد كشف القرآن الكريم عن هذه الحقيقة فى قول الله تعالى :

﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لايشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾ (1) .

لما آمنوا بالله وصدقوا بآياته وتجردوا من كل شوائب الشرك وكانوا على وجل دائم وخشية لله بسبب يقينهم التام أنهم راجعون إلى الله ، معروضة أعمالهم عليه ، من أجل ذلك سارعوا إلى فعل الخيرات فآتوا المال على حبهم له ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وحافظوا على الصلاة ووفوا بالعهد وتسلحوا بالصبر فهم أهل الصدق وأهل التقوى ، وهم يطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا يدفعهم إلى خصال البر وفعل الخير خوفهم من عذاب الله يوم يرجعون إليه للحساب فى يوم الدين .

يقول الله تعالى : **﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * عينا يشرب بها عباد الله ويفجرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا * ويطعمون الطعام على**

---

(1) المؤمنون : ٥٧ ـ ٦١ .

حبه مسكينا ويتيماً وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءً ولاشكورا * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ﴾ (١) .

وعلى هذا فإن الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة مرهون بفعل الخيرات على تنوعها وتعدد أشكالها ابتغاء مرضاة الله وحده وطمعاً فى ثوابه وخوفاً من عقابه ، ولهذا قال الله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾** (٢) .

وهذه الآية تشير بوضوح إلى أن فعل الخير يشمل ماهو أعم من الركوع والسجود والالتزام بالشعائر التعبدية .

وفى القرآن الكريم وفى السنة كذلك تفصيل واف لخصال الخير التى لاتدخل تحت حصر ، وهذه أمثلة نذكرها على سبيل التذكرة لاعلى سبيل الحصر : الإنفاق فى سبيل الله فى حالتى السراء والضراء ، وكظم الغيظ ، والتحكم فى النفس عند الغضب ، والعفو عند المقدرة ، والإحسان إلى من أساء إلينا فندفع إساءته إلينا بالإحسان إليه ، والإنابة إلى الله عندما يقع الإنسان فى خطأ فيتذكر أن له ربا يخشاه ويفزع إليه تائباً نادما .

---

(١) الإنسان : ٥ ـ ١٢ .

(٢) الحج : ٧٧ .

هذه بعض خصال الخير التى تعتبر المسارعة إلى فعلها مسارعة إلى مغفرة الله وجنته ، ولذا قال الله سبحانه : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** ﴾ (١) .

ويقول الله تعالى ﴿ **فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون** ﴾ (٢) .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « عرضت علىَّ أعمال أمتى حسنها وسيئها فوجدت فى محاسن أعمالهم الأذى يماط عن الطريق ، ووجدت فى مساوئ أعمالهم النخامة تكون فى المسجد لاتدفن » (٣) .

وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « لاتحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق » (٤) .

وطلاقة الوجه تعنى الضحك والتبسم والاستبشار لما فيه من

(١) آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٦ .

(٢) الروم : ٣٨ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم .

إيناس الأخ ودفع الوحشة عنه وجبر خاطره ، وهو مما يؤدى إلى التآلف بين المؤمنين .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل سلامى (١) من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » (٢) .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « على كل مسلم صدقة ، قال : أرأيت إن لم يجد ؟ قال يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ، قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يأمر بالمعروف أو الخير ، قال : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : يمسك عن الشر فإنها صدقة » (٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لقد رأيت رجلا يتقلب فى الجنة فى شجرة (٤) قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين » (٥) .

وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا كلب

---

(١) سُلامى : بضم السين أى مفصل .
(٢) متفق عليه .
(٣) متفق عليه .
(٤) أى بسبب قطع شجرة .
(٥) رواه مسلم .

يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى [١] فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له » قالوا يارسول الله : إن لنا فى البهائم لأجراً ؟ فقال : « فى كل كبد رطبة أجر » [٢] .

وفى رواية البخارى « فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة » .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سرق منه له صدقة ، وما أكل السبع منه فهو له صدقة ، وما أكلت الطير فهو له صدقة ولايرزأه [٣] أحد إلا كان صدقة » [٤] .

وهكذا يسعى المؤمن فى فعل الخير لنفسه وللناس ويتحرك بالخير فى كل اتجاه حتى يعود هذا الخير على الحيوانات والطيور والسباع والبهائم .

لكن لماذا المسارعة ؟ ألا يكفى المسلم أن يفعل الخير أو ينوى فعله ؟ .

نعم إن فعل الخير ابتغاء مرضاة الله ، ونية الفعل كذلك كلها موصلة إلى الفوز والفلاح ، ولكن لماذا لايكون المسلم سباقاً إلى فعل الخير ؟ ، لماذا لايبادر ويسارع ؟ أليس من الجائز مع التأخير أن يوافيه

---

(١) أي صعد .

(٢) متفق عليه .

(٣) أي ينقصه ويأخذ منه .

(٤) رواه مسلم .

الأجل أو تحول بينه وبين الفعل عقبات لم تكن فى الحسبان وقد يكتشف بعد فوات الأوان أن التأجيل لم يكن فى مصلحته .

إن المبادرة إلى فعل الخير خير جديد يضاف إلى الفعل ويضاعف من ثوابه ، ومن أجل هذا كانت المبادرة إلى فعل الخير مما حث عليه رسول الله ﷺ .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال سبعاً [1] هل تنتظرون إلا فقراً منسيا أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرماً مفندا [2] أو موتاً مجهزا [3] أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » [4] .

هذه مفاجآت قد تأتى بغتة تحول بين الإنسان وبين فعل الخير ثم تأتى ساعة يندم فيها على تقصيره ويتذكر فيها ما أهمل من طاعات ولاينفعه الندم ، والتذكر فى تلك الساعة لأن أوان الفعل قد ولى .

يقول الله تعالى : ﴿ **كلا إذا دكت الأرض دكاً دكا * وجاء ربك والملك صفاً صفاً * وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى * يقول ياليتنى قدمت لحياتى** ﴾ [5] .

ولهذا فقد بيَّن الرسول ﷺ أن فعل الخير فى حال الصحة

(١) أى سابقوا بالأعمال الصالحة سبعاً من الأحوال الطارئة .
(٢) مفنداً بضم الميم وكسر النون أى موقعاً فى الكلام الخرف .
(٣) مجهزاً بضم الميم وكسر الهاء أى سريعاً .
(٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن .
(٥) الفجر : ٢١ ـ ٢٤ .

والقوة وفى مرحلة الشباب أفضل من فعله فى حال المرض والضعف والشيخوخة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله أى الصدقة أعظم أجراً ؟ .

قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » (١) .

لما عرف المؤمنون قيمة فعل الخير سارعوا إليه وتسابقوا فى طلبه وتنافسوا فى فعله.

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتصدق بنصف ماله لتجهيز جيش العسرة ، ويسأله رسول الله ﷺ « وماذا أبقيت لأهلك ؟ » فيقول : تركت لهم نصف مالى .

وهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يتصدق بماله كله ويسأله رسول الله ﷺ : « وماذا أبقيت لأهلك ؟ » فيقول : تركت لهم الله ورسوله.

وهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه يتصدق بأحمال مائة بعير ، وهكذا تسابقوا فى فعل الخير فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

---

(١) متفق عليه .

ولهذا فإنهم لما عرفوا قيمة فعل الخير لم يكتفوا بفعله والتسابق فيه، ولكنهم دعوا الناس إلى فعله ليحصلوا على الفلاح من كل وجه.

يقول الله تعالى ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾(١).



---

(١) آل عمران: ١٠٤.

الذكر سبيل إلى الفلاح

يقول الإمام الغزالى (اعلم أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لانجاة إلا فى لقاء الله تعالى ، وأنه لاسبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محباً لله تعالى وعارفاً بالله سبحانه ، وأن المحبة والأنس لاتحصلان إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه ، وأن المعرفة لاتحصل إلا بدوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه ، وأن المعرفة لاتحصل إلا بدوام الفكر فيه وفى صفاته وأفعاله) .

ومن هنا كان الذكر أفضل العبادات وأعظمها شأنا وأعلاها قدراً من حيث تصفية القلوب وتحليتها وتزكية النفوس وتطهيرها .

يقول الله تعالى ﴿ **اتل ماأوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر** ... ﴾ (١) .

يقول الإمام ابن كثير : (إن الصلاة تشتمل على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر ولهذا قال الله : ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ أى أعظم من الأول)

ولذا كان الذكر سبيلاً إلى الفلاح ولن يصل أحد إلى الله إلا بدوام ذكره .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .

يقول الله تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ (١) .

وبالذكر تطيب قلوب المؤمنين وتركن إلى جناب الله وتسكن عند ذكره وتتوكل عليه وترضى به مولى ونصيرا .

يقول الله تعالى : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (٢) .

والذكر مأمور به ، والأدلة على ذلك كثيرة منها قول الله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولاتكفرون ﴾ (٣) .

يقول القرطبي عند تفسير هذه الآية : (أصل الذكر التنبيه بالقلب للمذكور والتيقظ له ، وسمي الذكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبي ، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم) .

ومعنى الآية اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة .

قاله سعيد بن جبير وقال أيضا : الذكر طاعة الله فمن لم يطعه لم يذكره ، وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن .

وقال ذو النون المصري رحمه الله : من ذكر الله تعالى ذكراً على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ الله عليه كل شيء ، وكان له عوضاً عن كل شيء .

وقال ثابت البناني رحمه الله تعالى : إني لأعلم متى يذكرني

---

(١) الأنفال : ٤٥ .

(٢) الرعد : ٢٨ .

(٣) البقرة : ١٥٢ .

ربى عز وجل ففزعوا منه ، وقالوا كيف تعلم ذلك ؟ فقال : إذا ذكرته .

ويدل على أن أصل الذكر التنبه بالقلب ، وأن الذكر باللسان سمى ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبى ، أنه جاء فى القرآن الكريم مقابلاً للغفلة ، والغفلة عمل من أعمال القلوب ، فدل ذلك على أن الذكر فى الأصل عمل من أعمال القلوب .

يقول الله تعالى : ﴿ **واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولاتكن من الغافلين** ﴾ (١) .

وقد أمر الله المؤمنين بالإكثار من الذكر لأن الذكر الكثير والتسبيح هما زاد المؤمنين على طريق العمل ، وعدتهم على تحمل المشاق ومواجهة الصعاب .

يقول الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا * هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما** ﴾ (٢) .

ويقول الله سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ (٣) .

---

(١) الأعراف : ٢٠٥ .
(٢) الأحزاب : ٤٢ ـ ٤٣ .
(٣) الحجر : ٩٧ ـ ٩٩ .

فضل الذكر :

وقد ورد الكثير فى فضل الذكر ، ونحن نذكر طرفاً من ذلك :

(١) الذاكرون فى معية الله تعالى ، وذلك لقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه فى الحديث القدسى . يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منهم » (١) .

(٢) الذكر موصل إلى رضوان الله وجنته ومغفرته ورحمته ، وذلك لقول الله تعالى ﴿ ..... **والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما** ﴾ (٢) .

ولقوله ﷺ فيما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه « من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل » (٣) .

(٣) الذكر يجلب الرزق ويحقق الآمال كلها ، وذلك لقوله ﷺ فيما رواه عن ربه فى الحديث القدسى « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » (٤) .

(٤) الذكر سببا لطمأنينة القلب ، لقول تعالى ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ (٥) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) الأحزاب : ٣٥ .

(٣) رواه الطبرانى في الدعاء .

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان ورواه البزار في المسند .

(٥) الرعد : ٢٨ .

قال الحكيم الترمذى : ذكر الله يرطب القلب ويلينه ، فإذا خلا عن الذكر أصابته حرارة النفس ونار الشهوة فقسا ويبس وامتنعت الأعضاء عن الطاعة .

آداب الذكر :

وللذكر آداب ينبغى توافرها حتى تتحقق ثمرته المرجوة ، وقد أشار إليها الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله فقال :

(واعلم أخى فى الله أن الذكر ليس المقصود به الذكر القولى فحسب بل إن التوبة ذكر والتفكر من أعلى مراتب الذكر ، وطلب العلم ذكر ، وطلب الرزق إذا حسنت فيه النية ذكر ، وكل أمر راقبت فيه ربك وتذكرت نظره إليك ورقابته فيه عليك ذكر .

ولهذا كان العارف ذاكراً على كل حالاته ،ولابد لكى يكون للذكر أثره فى القلب من مراعاة آدابه وإلا كان مجرد ألفاظ لاتأثير لها.

وقد ذكروا له آداباً كثيرة أهمها وأولاها بالرعاية :

(١) الخشوع والتأدب واستحضار معانى الصيغ ومحاولة التأثر بها ، وملاحظة مقاصدها وأغراضها .

(٢) خفض الصوت ما أمكن ذلك مع اليقظة التامة والهمة الكاملة حتى لايشوش على غيره ، وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذه الآداب فقال تعالى ﴿ **واذكر ربك فى نفسك تضرعاً**

وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولاتكن من الغافلين ﴾ (١) .

(٣) موافقة الجماعة ـ إن كان الذكر مع جماعة ـ فلايتقدم عليهم ولايتأخر عنهم ، ولايبنى على قراءتهم ، بل إن حضر وقد بدأوا ابتدء معهم من أول صيغة ثم قضى مافاته بعد انتهائهم .

وإن تأخر عنهم فى أثناء القراءة قرأ مافاته وأدركهم ولا يبنى على قراءتهم أصلاً لئلا يكون بذلك قد حرف القراءة وغير الصيغ وذلك حرام اتفاقاً .

(٤) النظافة فى الثوب والمكان ، ومراعاة الأماكن المحترمة والأوقات المناسبة حتى يكون أدعى إلى اجتماع همته وصفاء قلبه وخلوص نيته .

(٥) الانصراف فى خشوع وأدب مع اجتناب اللغط واللهو الذى يذهب بفائدة الذكر وأثره (٢) .

الذكر فى جماعة :

ويفهم مما سبق أنه يجوز أن يكون الذكر فى جماعة كما يجوز أن يكون على انفراد ، ومن الأدلة على ذلك الحديث القدسى « أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته

---

(١) الأعراف : ٢٠٥ .

(٢) من رسالة المأثورات ص ٤٦١ من مجموعة الرسائل دار الدعوة .

في نفسى ، وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منه » .

ومن ذلك أيضا ما روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خرج معاوية على حلقة فى المسجد : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ، قال : آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ ، قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك ، قال : أما إنى لم استحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثا منى ، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ ، قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده على ماهدانا للإسلام ومنّ به علينا ، قال : « أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة » (١) .

ومعلوم أن الجماعة مستحبة فى الطاعات كلها بل إنها سنة مؤكدة أو واجبة فى الصلوات الخمس وفريضة فى صلاة الجمعة .

حكم الذكر فى جماعة وفائدته :

يظهر مما سبق أن الذكر فى جماعة حكمه الجواز ، وقد ذكروا له فوائد كثيرة منها .

(١) تأليف القلوب ، وتقوية الروابط .

(٢) تعليم الأمى الذى لايعرف القراءة والكتابة ولايحسن التعلم..

---

(١) رواه مسلم والترمذى والنسائى .

(٣) إظهار شعيرة من شعائر الإسلام .

(٤) يدفع إلى النشاط ويمنع من الكسل والتراخى .

هذا وقد يكون الذكر فى جماعة مكروها إذا ترتب عليه محظور شرعى كالتشويش على مصل أو تحريف صيغ الذكر أو بناء الذاكر على قراءة غيره أو غير ذلك من المحظورات .

والإسرار فى الذكر أفضل من الإعلان ، وذلك لأنه أبعد عن الرياء والسمعة ، وهذا مفهوم من الحديث الصحيح « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله » وذكر منهم « ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه » (١) .

وفى مجالس الذكر خير كثير أشارت إليه الأحاديث النبوية الشريفة ، منها ماروواه الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال « إن لله عز وجل ملائكة سياحين فى الأرض فضلاً عن كتَّاب الناس فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا هلموا إلى بغيتكم فيجيئون فيحفون بهم إلى السماء ، فيقول الله تبارك وتعالى : أى شىء تركتم عبادى يصنعونه ؟ .

فيقولون : تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويسبحونك .

فيقول الله تبارك وتعالى : وهل رأونى ؟ ، فيقولون : لا .

---

(١) متفق عليه .

فيقول عز وجل : فكيف لو رأونى ؟ فيقولون : لو رأوك لكانوا أشد تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً ، فيقول لهم : من أى شىء يتعوذون ؟ فيقولون من النار . فيقول تعالى : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا ، فيقول الله عز وجل : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد هرباً منها وأشد نفورا ، فيقول الله عز وجل : وأى شىء يطلبون ؟ ، فيقولون : الجنة ، فيقول تعالى : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا ، فيقول تعالى : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصا ، فيقول جل جلاله إنى أشهدكم أنى قد غفرت لهم ، فيقولون : كان فيهم فلان لم يرد إنما جاء لحاجة ، فيقول الله عز وجل : هم القوم لايشقى جليسهم » .

يقول الأستاذ سعيد حوى (على مريد الآخرة أن يرتب على نفسه شيئاً من الاستغفار والتهليل والصلاة على رسول الله ﷺ إلى غير ذلك من الأذكار المأثورة ، كما أن عليه أن يعود لسانه على الذكر المستمر فإنه بقدر مايأخذ نفسه بوسائل التزكية تزكو نفسه ويرتقى ، شعر بذلك أم لم يشعر) (١) .

---

(١) المستخلص في تزكية الأنفس صـ٨٤ بتصرف .

التقوى سبيل إلى الفلاح

التقوى هدف عام بعث الله من أجله الرسل وبه نزلت التشريعات والأوامر والوصايا ، وهى إن وجدت فى قلب بشر لم يحتج بعدها إلى رقيب أو حسيب ، لأنها تحجز صاحبها عن كل شر وتدفعه إلى كل خير .

ولهذا أوصى الله تبارك وتعالى جميع الخلائق بأن يتقوه ....

فقال سبحانه : ﴿ **ولقد وصينا الذين أوتو الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ....** ﴾ (١) .

وكان كل رسول يوصى بها قومه ، فنوح عليه السلام يقول لقومه فيما حكاه القرآن الكريم : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ (٢) .

وكذلك قال هود عليه السلام : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ (٣) .

وأيضا قالها صالح عليه السلام : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ (٤) .

ومثل ذلك قال شعيب عليه السلام : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ (٥) .

وأيضا فإن عيسى عليه السلام أوصى بها قومه : ﴿ **فاتقوا الله**

---

(١) النساء : ١٣١ .
(٢) الشعراء : ١٠٨ .
(٣) الشعراء : ١٢٦ .
(٤) الشعراء : ١٤٤ .
(٥) الشعراء : ١٧٩ .

وأطيعون ﴾ (١) .

وعلى نفس الدرب سار محمد ﷺ وأمته بأمر الله فى قوله سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾** (٢) .

والصالحون من عباد الله يسرهم ويسعدهم أن يأتى إليهم ناصح أمين يأمرهم بتقوى الله عز وجل ، وحين جاءت امرأة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه وقالت له : اتق الله ياعمر ، فرح بذلك وسعد وقال : « لاخير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نسمعها » ، أما الطغاة والجبابرة والمفسدون فى الأرض - وإن تظاهروا بالصلاح والتقوى - فإن سريرتهم تتكشف ، وحقيقتهم تفتضح إذا جاءهم من يأمرهم بتقوى الله عز وجل ، وسرعان مايغضبون ويثورون ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾** (٣) .

إذاً فما هى التقوى ؟ إنها ملكة ينبع عنها سلوك ، ولذلك فإن

---

(١) آل عمران : ٥٠ .

(٢) آل عمران ١٠٢ .

(٣) البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٦ .

محلها هو القلب ، وأثرها يظهر على الجوارح وفى الأعمال .

ولذا .. قال عليه الصلاة والسلام « التقوى ها هنا .... وأشار إلى صدره » (١) .

والتقوى هى مقياس القرب والبعد من الله عز وجل .

يقول الله سبحانه : ﴿ ... **إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ (٢) .

وهى كذلك خير لباس يزين الإنسان ويرفع شأنه فى الدنيا والآخرة .

يقول الله تعالى : ﴿ **يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير** ... ﴾ (٣) .

ولايكون وليا لله إلا من كان من المتقين ، يقول عز من قائل : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ (٤) .

ولايقبل الله عملاً إلا إذا كان فاعله من المتقين ، يقول الله سبحانه : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ (٥) .

والرخاء الاقتصادى معلق على تحصيل التقوى ، يقول الله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا**

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة .

(٢) الحجرات : ١٣ . (٣) الأعراف : ٢٦ .

(٤) الأنفال : ٣٤ . (٥) المائدة : ٢٧ .

يكسبون﴾ [1] .

والحصول على الرزق الحسن والخروج من كل ضيق وتيسير أمور الإنسان كل ذلك مرتبط بالتقوى ، يقول الله تعالى :

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب .. ﴾ [2] .

ويقول سبحانه : **﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾** [3] .

وحين يتحير الناس وتختلط عليهم السبل فلا يكادون يميزون بين ماينفعهم ومايضرهم ويلتبس الحق بالباطل والخير بالشر فإن التقوى تنقذ صاحبها من تلك الحيرة لأنه بالتقوى يملك الفرقان الذى يحصل به التمييز والنور الذى تكون به الهداية .

يقول الله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾** [4] .

ويقول سبحانه : **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾** [5] .

وبالتقوى يتحقق النصر ويحبط الله كيد الأعداء ويرد كيدهم

---

(١) الأعراف : ٩٦ .
(٢) الطلاق : ٢ ، ٣ .
(٣) الطلاق : ٤ .
(٤) الأنفال : ٢٩ .
(٥) الحديد : ٢٨ .

إلى نحورهم ، لأن الله مع المتقين ، ومن كان الله معه لايغلب ولايقهر ، ويقول الله عز وجل : **﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾** (١) .

ويقول الله سبحانه : **﴿ وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط ﴾** (٢) .

وبالتقوى يكون حفظ الله للإنسان فى ذريته من بعده ، يقول الله تعالى : **﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدا ﴾** (٣) .

وبهذا يظهر أن التقوى فوز وفلاح لصاحبها فى الدنيا ، وأما ما أعده الله للمتقين فى الآخرة فهو أعظم ، إذ أن الله بفضله ورحمته سيجنبهم عذاب النار ، يقول الله سبحانه **﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى * لايصلاها إلا الأشقى * الذى كذب وتولى * وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ... ﴾** (٤) .

وبعد أن يجنبهم الله عذاب النار يدخلهم الجنة التى أعدها لهم وتهيأت للقائهم ، يقول الله تبارك وتعالى : **﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾** (٥) .

(١) التوبة : ١٢٣ . (٢) آل عمران : ١٢٠ .
(٣) النساء : ٩ . (٤) الليل : ١٤ ـ ١٨ .
(٥) آل عمران : ١٣٢ .

ويقول عز من قائل : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ * من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾ (١) .

ولافلاح أعظم من ذلك : ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ...** ﴾ (٢) .

وقد ورد الأمر بالتقوى موجها إلى رسول الله ﷺ وإلى جماعة المؤمنين وإلى الناس كافة أكثر من ثمانين مرة فى القرآن الكريم .

وذلك يدل بوضوح على أهمية التقوى حتى إن القرآن الكريم وصفها بأنها خير زاد ووصف المتقين بأنهم أصحاب العقول الذين يسعون فى تحصيل ماينفعهم حيث يقول ربنا سبحانه : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب** ﴾ (٣) .

أمر الله رسوله بالتقوى فقال : ﴿ **يا أيها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما** ﴾ (٤) .

وأمر عباده المؤمنين بالتقوى فى كثير من الآيات منها قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ (٥) .

---

(١) ق : ٣١ ـ ٣٥ .
(٢) آل عمران : ١٨٥ .
(٣) البقرة : ١٩٧ .
(٤) الأحزاب : ١ .
(٥) آل عمران : ١٠٢ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بماتعملون** ﴾ (١) .

وخاطب الناس جميعا آمراً إياهم بالتقوى فقال : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾ (٢) .

ماهى التقوى :

ومن هنا وجدنا الصحابة رضوان الله عليهم يشتغلون بالبحث عنها ومحاولة التعرف عليها وسلوك كل مايؤدى إلى تحصيلها ، والتحلى بكل صفة تسلكهم فى سلك أهلها ، والتخلى عن كل نقيصة تبعدهم عن رحابها ، ذلك لأنهم أدركوا أن التقوى سبيل إلى الفلاح وطريق إلى الفوز بسعادة الدارين .

سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبى بن كعب رضى الله عنه فقال : يا أبىّ ماهى التقوى ؟ قال أبى : يا أمير المؤمنين أما سرت فى طريق فيه شوك ؟ قال : بلى ، قال : فماذا كنت تصنع ؟ ، قال : كنت أشمر عن ثيابى وأجتهد ، قال : فتلك هى التقوى .

يعنى أن التقوى هى دوام الحذر والخشية والمراقبة ، والحذر والخشية من الوقوع فى المعصية من معاصى الله أو التقصير فى أمر

(١) الحشر : ١٨ .
(٢) النساء : ١ .

من أوامره ، والمراقبة لله سبحانه فى كل شأن وفى كل حال « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » (١) .

وبديهى أن من راقب الله فى السر والعلن كان محافظاً على الطاعات متجنباً للفواحش ماظهر منها ومابطن .

وإذا كان أبيٌّ بن كعب رضى الله عنه قد شرح حقيقة التقوى بواسطة ذلك التمثيل الرائع لحال المتقين فى يقظتهم وحذرهم وخشيتهم حتى لايكاد أحد منهم يصاب الشىء من المهلكات ، فإن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه عرَّف التقوى بآثارها الباطنة والظاهرة ونتائجها العملية والسلوكية وذلك عندما قال : « التقوى هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل » .

ولا يقف أثر التقوى عند حد المحافظة على الطاعات والبعد عن المعاصى والمنكرات ، بل إنها ترتقى بصاحبها حتى يكون حذراً من الوقوع فى الشبهات ، وهذا مانبه إليه رسول الله ﷺ فى قوله : « لايبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالابأس به حذراً لما به بأس » (٢) .

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٢) رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

الطريق إلى التقوى :

وقد اعتنى القرآن الكريم برسم الطريق المؤدى إلى تحصيل التقوى ، ويمكن بيان بعض الوسائل التى يتم بها تحصيل التقوى فيما يأتى :

(١) مدارسة القرآن الكريم وتدبر آياته وإمعان النظر فيما جاء به من وعد ووعيد ، الأمر الذى يؤدى إلى الطمع فى عفو الله وفضله وإلى الخوف من غضب الله وعذابه ، يقول الله تعالى : ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا** ﴾ (١) .

ويقول عز من قائل ﴿ **تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون** ﴾ (٢) .

ولهذا كانت قراءة القرآن أهم ورد ينبغى على كل مسلم أن يقرأه ، ومقدار هذا الورد يختلف باختلاف ظروف الناس .

والمهم أن لايمر على المسلم يوم دون أن يقرأ شيئاً من كتاب الله تعالى ، وينبغى أن تكون القراءة بتدبر وتفكر وخشوع فذلك هو المقصود الأول من القراءة ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو**

---

(١) طه : ١١٣ .

(٢) البقرة : ١٨٧ .

الألباب ﴾ (١) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله » (٢) .

(٢) بذل الجهد فى تحقيق الهداية لأن بذل الجهد فى سبيل الوصول إلى الهداية يوصل إليها وإلى المزيد منها وإلى الحصول على التقوى ومع أن الهداية وزيادتها والحصول على التقوى كلها هبات ومنح من الله تبارك وتعالى إلا أنه لابد من الجهد البشرى .

يقول الله تعالى : **﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾** (٣) ..

يقول الإمام ابن كثير (أى لنبصرنهم سبلنا أى طرقتنا فى الدنيا والآخرة .

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى أخبرنا عباس الهمدانى أبو أحمد من أهل عكا فى قول الله تعالى : **﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا .. ﴾** قال : (الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لمالايعلمون) .

---

(١) ص : ٢٩ .

(٢) رواه ابن ماجة .

(٣) العنكبوت : ٦٩ .

ولهـذا قال تعـالى : ﴿ **والذيـن اهتــدوا زادهم هدى وآتـاهم تقواهم** ﴾(١) .

وعلى هذا فإن المجاهدة تورث الهداية والهادية تورث التقوى .

(٣) الصيـام طريق من طرق التـحقق ، ذلك لأن التقـوى طريق الجنة والجنة محفوفة بالمكاره ، والشهوات طريق إلى النار والصيام هو رمز السيطرة على الشهوة وهو مدرسة كفاح الشهوة وتقوية الإرادة على فعل الطاعات وترك المعاصى يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كـتب عليكم الصيـام كمـا كتب على الذين من قـبلكم لعلكم تتقون** ﴾(٢) .

فمن دخل مدرسة الصوم ولازمهـا كان من المتقين بإذن الله عز وجل .

(٤) عبادة الله عز وجل :

ولاعبادة بدون معرفة ولاعـبادة إلا بما أمر ولايحقق الإنسان أمر العبادة إلا إذا عرف المـعبود وعرف كيف يعبده ثم عـبده ، ومن فعل ذلك كان من المتقين .

يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعـبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾(٣) .

---

(١) محمد : ١٧ .	(٢) البقرة : ١٨٣ .

(٣) البقرة : ٢١ .

ومعرفة الله لاتتحقق إلا بمعرفة ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، كما يدل عليها العقل ويثبتها النقل ، فما عرف الله من لم يعرف وحدانيته ، وحدانية الذات والصفات والأفعال ، فلاذات مثل ذاته ولاصفات مثل صفاته ولافاعل فى هذا الوجود غيره ابتداء وانتهاء إيجاداً وإمداداً ﴿ **الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل** ﴾ (١) .

﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ (٢) .

وماعرف الله من لم يعرف صمدانيته وغناه عن خلقه وافتقار جميع خلقه إليه ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد** ﴾ (٣) .

وماعرف الله من لم يعرف قدمه بلا بداية وبقاءه بلانهاية ثم أثبت للخلق الحدوث وإمكانية الفناء ، ونفى عن الله الأبوة والبنوة لتعرضها مع التقدم والبقاء : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم** ﴾ (٤) .

وماعرف الله من شبه الله بخلقه فلاذاته تشبه الذوات ولاصفاته تشبه الصفات ولا أسماؤه تشبه الأسماء ولا أفعاله تشبه الأفعال ﴿ **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾ (٥) .

---

(١) الزمر : ٦٢ . (٢) الأنفال : ١٧ . (٣) فاطر : ١٥ .
(٤) الحديد : ٣ . (٥) الشورى : ١١ .

فإذا عرفنا هذا وعرفنا أن كل شيء فى الكون هو فعل الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، نكون قد حققنا الشرط الأول للعبادة .

ويأتى بعد ذلك الشرط الثانى ، وهو أن نعبد الله بما شرع ، وليس بما نخترع ونبتدع وأن نلتزم بما جاءنا به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾ (١) .

يقول ﷺ « من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد » (٢) .

وكل عمل نعمله ننفذ به أمراً أو نجتنب منهياً عنه أو نأتى مباحاً كان عبادة لله مقبولة إذا صاحبته نية صالحة ، يقول ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه » (٣) .

وعلى هذا فباب العبادات واسع ، فالصلاة عبادة ، والزكاة عبادة ، والصيام عبادة ، والحج عبادة ، والجهاد بأنواعه عبادة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عبادة ، والزواج عبادة ، والكسب للإنفاق على النفس والعيال عبادة ، بل ومعاشرة الزوجة

---

(١) الحشر : ٧ .   (٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

عبادة ، وتعليم الأولاد عبادة ، ورعاية حقوق الجار وصلة الأرحام عبادة ، ورعاية حقوق الوالدين عبادة ، وطلب العلم عبادة والتخصص فى علم ينفع المسلمين عبادة .... وهكذا .

من هم المتقون ؟ :

وإذا تساءلنا من هم المتقون وماهى صفاتهم وأعمالهم ؟ وجدنا أنهم الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويؤمنون بكل الكتب وكل الرسل ، ويوقنون بالآخرة ويخشون ربهم بالغيب ، ذوو قلوب سليمة منيبة إلى الله ، يكظمون غيظهم ويعفون عن الناس ويحسنون إلى من أساء إليهم ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، لايقولون زوراً ولايغشون فجورا ، يصدقون إذا حدثوا ، يوفون بالعهد إذا عاهدوا ، يشكرون على النعماء ويصبرون فى البأساء والضراء ، عابدون حامدون سائحون راكعون ساجدون آمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، حافظون لحدود الله ، معتدلون فى الإنفاق ، سباقون إلى الخيرات ، يفرون من المعاصى والمنكرات ، لارغبة لهم إلا فيما عند الله ولايؤرقهم إلا الخوف من عذاب الله ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ٥ .

التوبة سبيل إلى الفلاح

التوبة فى اللغة معناها الرجوع ، وفعلها تاب ، ومثلها ثاب وآب ، أى رجع .

وفى الاصطلاح : الرجوع عن فعل المعاصى والعود عنها إلى فعل الطاعات والالتزام بها ، ولهذا قال الله سبحانه : ﴿ **وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى** ﴾ (١) .

والتوبة تنبنى على علم وحال وفعل ، والمقصود بالعلم معرفة ضرر الذنوب وخطرها على الإنسان ، وأنها حجاب بين العبد وبين كل محبوب ، فإذا صارت هذه المعرفة يقيناً محققا تألم القلب بسبب ذلك ، ويسمى تألم القلب هذا ندماً يؤدى إلى التوبة .

ومن معانى التوبة ترك المعاصى فى الحال ، والعزم على تركها فى الاستقبال ، وتدارك ماسبق من التقصير فى سابق الأحوال .

والتوبة من الذنوب واجبة صدر الأمر بها من الله عز وجل .

يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ...** ﴾ (٢) .

---

(١) طه : ٨٢ . (٢) التحريم : ٨ .

يقول العلماء التوبة النصوح أن يقلع عن الذنب فى الحاضر ، ويندم على ماسلف منه فى الماضى ويعزم على أن لايفعل فى المستقبل ، ثم إن كان الحق لآدمى رده إليه .

ومن فضل الله سبحانه أن التوبة الصادقة تمحى بها الذنوب ـ بفضل الله ورحمته ـ مهما كانت هذه الذنوب .

يقول الله تعالى : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ (١) .

يقول الإمام ابن كثير (هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر) .

وينبغى أن لايقنط عبد من رحمة الله ، وإن عظمت ذنوبه وكثرت فإن باب الرحمة والتوبة واسع .

قال الله تعالى : ﴿ **وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ....** ﴾ (٢) .

وقال عز من قائل : ﴿ **ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم**

---

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) الشوري : ٢٥ .

يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما ﴾ (١) .

ويقول سبحانه وتعالى فى شأن المنافقين : **﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما ﴾** (٢) .

ويقول جل وعلا : **﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾** (٣) .

وقال تبارك وتعالى : **﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾** (٤) .

يقول الحسن البصرى رحمه الله (انظر إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

وروى الطبرانى من حديث أبى المغيرة عن صفوان بن عمر عن عبد الرحمن بن جبير عن أبى فروة أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له

---

(١) النساء : ١١٠ .
(٢) النساء : ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٣) المائدة : ٧٣ ، ٧٤ .
(٤) البروج : ١٠ .

من توبة ؟ فقال : « أأسلمت ؟ » فقال : نعم ، قال : « فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها » قال : وغدراتي وفجراتي ؟ قال « نعم » فما زال يكبر حتى توارى ، وذلك مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما** ﴾ (١) .

ومعلوم أنه لامعصوم إلا الرسل ، وأن كل الخلق ماعدا الرسل معرضون للخطأ ، ولهذا ورد فى الحديث « كل بنى آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون » (٢) .

ومن أجل هذا رغبنا الإسلام فى مداومة الاستغفار والتوبة وبين القرآن الكريم أن الله سبحانه يحب التوابين .

يقول عز من قائل : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ (٣) .

ولأن الله يحب التوابين فقد كان رسول الله ﷺ يستكثر من التوبة دون أن يكون له ذنب ، وقد ورد عنه قوله : « توبوا إلى ربكم فوالله إنى لأتوب إلى ربى فى اليوم مائة مرة » (٤) .

ومن شروط التوبة العزم الصادق على عدم العود إلى الذنب .

---

(١) الفرقان : ٧٠ .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) البقرة : ٢٢٢ .

(٤) رواه مسلم وأبو داود .

وهنا يأتى سؤال هو : ما الحكم إذا كان عازماً على عدم العود إلى الذنب لكنه عاد ، هل له من توبة ؟ .

الجواب : نعم ، لما ورد عن النبى ﷺ فى الحديث القدسى عن رب العزة قال : « أذنب عبد ذنبا ، فقال اللهم اغفر لى فقال الله تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب فقال : أى رب اغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب فقال : أي رب اغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب قد غفرت لعبدى فليفعل ماشاء » (١) .

قال القرطبى (يدل هذا الحديث على عظم فائدة الاستغفار وعلى عظيم فضل الله وسعة ورحمته وحلمه وكرمه) .

وعلى هذا فإن من أراد أن يسير فى طريق التوابين حتى يكون من المفلحين مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّه المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ (٢) ، فعليه أن يكثر من الاستغفار مااستطاع ، فإن لم يكن ففى اليوم مائة مرة أو سبعين مرة كما روى عن رسول الله ﷺ ، فإن لم يفعل فليلتزم بالسنن الآتية :

---

(١) متفق عليه .

(٢) النور : ٣١ .

أولاً : أن يردد الصيغة الآتية مرة فى أول النهار ومرة فى المساء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ماستطعت ، أعوذ بك من شر ماصنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت » من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة » (١) .

ثانياً : أن يحافظ على ختم الصلاة بما أثر عن رسول الله ﷺ فيما رواه عنه سيدنا ثوبان رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا سلم يستغفر الله ثلاثاً ويقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام » (٢) .

قيل للأوزاعى : كيف الاستغفار ؟ قال : يقول أستغفر الله استغفر الله .

ثالثا: أن يحافظ على دعاء نهاية المجلس يختم به مجالسه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « من جلس فى مجلس كثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك :

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ماكان فى مجلسه ذلك » (١) .

فما أعظم فضل الله وما أوسع كرمه ، لقد بلغ من عظيم رحمته وبره وإحسانه أنه سبحانه وتعالى يفرح فرحاً عظيما بتوبة عبده العاصى إذا رجع إليه وندم على ماكان منه .

يقول ﷺ : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها (٢) ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح » (٣) .

هذا وإن باب التوبة يظل مفتوحاً بين العبد وربه بلاوسيط ليلاً ونهاراً حتى تطلع الشمس من مغربها أو حتى تصل الروح إلى الحلقوم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » (٤) .

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) خطام الناقة : الحبل .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم .

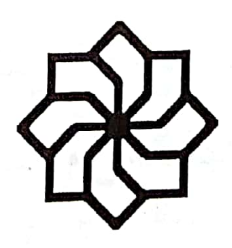
وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يقبل توبة العبد مالم يغرغر » (١) .

وعلى هذا فإن التوبة تمحو الذنوب وتجلو القلوب فتعود نقية صافية وتستعيد سلامتها وصحتها وتوصل صاحبها إلى الجنة ، وهذا هو الفلاح المبين والفوز العظيم .

يقول الله تعالى : ﴿ **فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين** ﴾ (٢) .

يقول ابن كثير : (وعسى من الله موجبة فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لامحالة) .

فاللهم ارزقنا توبة صادقة ، واجعلنا من التوابين واجعلنا من المتطهرين .



---

(١) رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

(٢) القصص : ٦٧ .

الجهاد سبيل إلى الفلاح

حين تذكر كلمة الجهاد ينصرف الذهن إلى قتال الأعداء ومواجهتهم بالسلاح والوقوف أمامهم فى ميادين القتال ، وحقيقة إن هذا نوع من الجهاد ، وليس كل الجهاد قتالاً بالسلاح فى سبيل الله بدليل قول الله تعالى فى شأن القرآن الكريم : ﴿ **ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا * ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً * فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا** ﴾ (١) .

فهذا جهاد بالقرآن وليس بالسلاح ، وذلك يعنى القيام بالدعوة وتبليغ الرسالة وقول الحق ، وهذا واضح من سياق الآية ، فالأمر بالجهاد هنا لا يعنى قتالاً لأن السورة مكية ولم يكن القتال مفروضاً فى مكة .

ومما يؤكد هذا أيضا قول الله تعالى فى سورة العنكبوت ، وهى كذلك سورة مكية : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ (٢) .

---

(١) الفرقان : ٥٠ ــ ٥٢ .

(٢) العنكبوت : ٦٩ .

فإن المعنى : من جد واجتهد فى العمل بدين الله والعمل لدين الله هداه الله إلى سبيل الفلاح والنجاة ، لأنه بهذا قد صار محسناً وإن الله لمع المحسنين .

وفى الحق أن الجهاد كلمة جامعة شاملة يدخل فيها جميع أنواع السعى وبذل الجهد والكفاح واستخدام شتى الوسائل المشروعة لإحداث التغيير الذى تنشده دعوة الله .

وفى تعريف الجهاد يقول ابن تيمية (الجهاد حقيقته الاجتهاد فى حصول مايحبه الله من الإيمان والعمل الصالح وفى دفع مايبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان) (١) .

والمؤمنون وهم يسعون لتحقيق هذه الأهداف يتعرضون للابتلاء ، والابتلاء لايكون إلا مع وجود المعوقات والعراقيل والعقبات التى يضعها الأعداء على الطريق يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا .

وبتتبع ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يتبين أن هؤلاء الأعداء الذين يصدون عن سبيل الله ويعوقون مسيرة الدعوة خمسة :

العدو الأول : شهوات النفس وأهواؤها .

---

(١) العبودية : صـ ١٠٤ .

العدو الثانى : الشيطان .

العدو الثالث : الكفار .

العدو الرابع : المنافقون .

العدو الخامس : أهل المنكر ، وهم أهل الفسق والظلم .

وعلى هذا فإن الجهاد ينبغى أن يوجه إلى هؤلاء جميعاً وأن تتخذ لذلك الوسائل المناسبة .

وسنتحدث عن كل نوع من هذه الأنواع فيما يأتى :

أولاً : جهاد النفس :

ويكون جهاد النفس يحمل طاقاتها على تنفيذ منهج الله الذى أنزله .

يقول الله تعالى : ﴿ **ونفس وماسواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾ (١) .

وتزكية النفس تكون بحملها على طاعة الله تبارك وتعالى ، وتدسيتها تكون بوقوعها فى معصية الله تبارك وتعالى .

ميادين جهاد النفس :

وجهاد النفس يكون فى أربعة ميادين :

---

(١) الشمس : ٧ ـ ١٠ .

(١)جهاد على تعلم الهدى ودين الحق ، وذلك يكون بالجد فى طلب العلم والسعى فى تحصيله ، وتلك هى البداية الصحيحة التى تسبق العمل ، ومن أجل هذا رفع الله شأن العلماء فقال : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ...** ﴾ (١) .

(٢) جهادها على العمل والالتزام بما تعلمت ، لأن معرفة الطريق لاقيمة لها إذا لم يسلك الإنسان ذلك الطريق الذى عرفه ، بل إن هذه المعرفة ربما أضرت به حيث تكون حجة عليه يوم القيامة فالمطلوب أن يكون العلم وسيلة للعمل وسبيلاً إلى التقوى ، وخلاف ذلك مذموم ، يقول الشاعر الحكيم :

لو كان للعلم من دون التقى شرف　　لكان أشرف خلق الله إبليس

(٣) جهادها على الدعوة إلى ماتعلمت من الحق والهدى ، وهذا من أهم أنواع الجهاد ، وخاصة عندما ينتشر الفساد ويترك العباد حكم الله ، وغياب هذا النوع من الجهاد يفسح المجال لأعداء الله من شياطين الإنس والجن لينشروا باطلهم وفسادهم .

(٤) جهادها على الصبر على مشاق الدعوة ، وهو مبنى على ماسبقه لأن من دعا إلى الله يكون معرضاً للأذى ، ويكون عليه أن يصبر حتى يأتى نصر الله ، ولهذا جاء ذكر التواصى بالصبر بعد

---

(١) المجادلة : ١١ .

التواصى بالحق فى سياق التعرض لذكر صفات المفلحين الفائزين الذين نجوا من الخسران المبين ، وذلك فى قوله الله تعالى ﴿ **والعصر إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ (١) .

وهو نوع من أنواع الصبر كما سبق أن ذكرنا .

ثانيا : جهاد الشيطان :

لقد نذر الشيطان نفسه لعداوة الإنسان والكيد له من أول الأمر وقد دفعه إلى ذلك الكبر والحسد ، حسد آدم على ماوهبه الله من فضل ، ودفعه الكبر إلى معصية الله فرفض السجود لآدم ، وتوعد ذرية آدم بالإغواء .

وحكى القرآن الكريم ذلك فقال : ﴿ **قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيدهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين** ﴾ (٢) .

وهو عدو خطير يجب الحذر منه وبذل الجهد فى مقاومته ، ولهذا قال الله عز وجل : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ (٣) .

(١) سورة العصر .

(٢) الأعراف : ١٦ ، ١٧ .

(٣) فاطر : ٦ .

وهو عدو جاد فى عداوته يبتغى للإنسان الهلاك الدائم والعذاب المقيم ، وأن يكون من أصحاب النار .

فعلى العاقل أن يبذل قصارى جهده فى محاربته ومجاهدته .

مداخل الشيطان :

واعلم أن للشيطان مداخل يدخل منها إلى قلب الإنسان ليغويه ويصده عن سبيل الله ، وأخطر هذه المداخل : الهوى والشهوات ، فمن اتبع هواه استذله الشيطان واستعبده ، وكان حاله كحال ذلك الرجل الذى ذكر الله قصته فى قوله سبحانه : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ...** ﴾ (١) .

ومعلوم أن الشيطان لايتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهواته فقد ضيق المجال الذى يعمل فيه الشيطان وفوت عليه الفرص وأعجزه عن إصدار الأوامر الشريرة إليه .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مايبين لنا كيف يأتى الشيطان للإنسان عن طريق شهواته ، وذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق ، قعد له بطريق

---

(١) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦ .

الإسلام فقال : أتسلم وتترك دينك ودين آبائك ؟ فعصاه وأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر ؟ أتدع أرضك وسماءك ؟ ، فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال : أتجاهد ؟ وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل وتنكح نساؤك ويقسم مالك ؟ ، فعصاه وجاهد ، ثم قال رسول الله ﷺ : « فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة » (١) .

أسلحة المواجهة :

ومادمنا قد علمنا مداخل الشيطان وأدركنا هدفه وأيقنا من عداوته فقد وجب أن نتحفز لمقاومته ونتهيأ لمجاهدته ، وذلك إنما يكون بإغلاق الأبواب التى يدخل منها وتفويت الفرص عليه ، وعمارة القلب بما يخرج الشيطان منه ويبطل مفعوله وشره ووساوسه ، ومن عزم على ذلك أخذ سلاحه وواجه شيطانه ، والمؤمن يتسلح فى مواجهة الشيطان بأسلحة شتى نذكر منها :

(١) **التفكر** : وهو سلاح يزيد به اليقين فى الله وإدراك عظمته وجلاله ، وذلك يحصل عن طريق التفكر فى ملكوت الله والتدبر فى بديع صنعه .

(٢) **الذكر** : وهو سلاح يزيد به الشعور بمراقبة الله عز وجل ،

---

(١) رواه النسائى بإسناد صحيح .

لك ولغيرك من المخلوقات ، وذلك يحصل بدوام ذكره وتلاوة كتابه وعبادته بما شرع من الطاعات .

وبالذكر يظل القلب مستيقظاً راجياً لله خائفاً منه .

والشيطان قرين كل إنسان يعرض عن ذكر الله عز وجل ولايتفكر فى عظمته وجلاله ولاينتفع بآياته ، وإنما يمر عليها كالأصم الأعمى يقول الله سبحانه : ﴿ **ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين** ﴾ (١) .

(٣) **الاستغفار والتوبة** :وهى وسيلة ناجعة فى مقاومة الشيطان تقطع طمعه فى العبد وترد كيده إلى نحره وتمحو آثار عدوانه .

يقول الله تعالى : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ (٢) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « قال إبليس يارب وعزتك لا أزال أغوى بنى آدم مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم مااستغفرونى » (٣) .

ثالثاً : جهاد الكفار

لما كانت الدعوة إلى الله عز وجل هى الوظيفة الأساسية

---

(١) الزخرف : ٣٦ .
(٢) البقرة : ٣٧ .
(٣) رواه الإمام أحمد في المسند .

للمؤمنين ، ومن أهداف الدعوة إلى الله الحد من الشهوات والأهواء لأنها أصل الفساد ووسيلة الشيطان لإغواء العباد ، ولأن الكفار غلبت عليهم الأهواء والشهوات ، والكفر غالباً نتاج طبيعى لاتباع الهوى والاستسلام للشهوات ، لهذا كله فإن الكفار يدركون خطر الدعوة الربانية عليهم وعلى مكاسبهم الدنيوية ، ومن هنا وقفوا منها موقف العداء للحفاظ على تلك الشهوات التى استسلموا لها بتزيين الشيطان ، وهو موقف ثابت وليس أمراً عارضاً يمكن أن يزول ، وهذا المعنى يظهر بوضوح فى قول الله تعالى : ﴿ **ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ...** ﴾ (١) .

ولهذا كان جهاد الكفار فرضا على المؤمنين وضرورة حتمية للحفاظ على بذرة الإيمان فى قلوب أصحابها وإيصال دعوة الله إلى خلقه ، وهو وإن كان مكروها للنفس البشرية فإن فيه الخير والصلاح .

يقول الله تعالى : ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون** ﴾ (٢) .

وقد ورد فى فضل الجهاد أحاديث كثيرة ، منها قوله ﷺ جوابا

---

(١) البقرة : ٢١٧ .　　(٢) البقرة : ٢١٦ .

على من سأله : أى الأعمال أفضل ؟ قال إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور » (١) .

وجاء فى الصحيح أن رجلاً قال يارسول الله دلنى على عمل يعدل الجهاد فى سبيل الله ، قال لا أجده ، فكرر السؤال ، ورسول الله يقول لا أجده ، ثم قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولاتفتر وتصوم ولاتفطر حتى يرجع ؟ فقال : ومن يستطيع ذلك ؟ » (٢) .

وهذا يدل على أن الجهاد فى قمة الأعمال التى يتقرب بها إلى الله والتى توصل إلى رضوانه وجنته ، كما أنه يوصل إلى العزة والتمكين والنصرة .

يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾ (٣) .

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه البخارى .

(٣) الصف : ١٠ ـ ١٣ .

رابعاً : جهاد المنافقين :

المنافقون أشد الناس خطراً على الإسلام والمسلمين ، وهم أخطر على الدعوة الإسلامية ومسيرتها من الكافرين .

وذلك بسبب خبث أساليبهم وقدرتهم على إخفاء عداوتهم ، ولأنهم قادرون على الوصول إلى مواقع بين المسلمين لايصل إليها غيرهم من الكفار .

لهذا كان جهادهم من ألزم الجهاد على المؤمنين ، واتخاذ الحيطة منهم أوجب من اتخاذها من غيرهم .

ولعله من أجل شدة خطرهم تحدث عنهم القرآن الكريم باستفاضة حتى بلغ ماخصص للحديث عنهم وعن أحوالهم وأساليبهم فى محاربة الدعوة الإسلامية ، وماذكره عن صفاتهم الخبيثة مايقارب عشر القرآن ، بل لقد نزلت فيهم سورة بكاملها سميت باسمهم .

ومن هنا ذهب بعض العلماء إلى أن المنافقين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام أشد خطراً من الكفار المجاهرين بكفرهم وعداوتهم وأنهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله تعالى لذلك جعل الله عذابهم أشد العذاب فى الآخرة .

فقال عز وجل : ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا** ﴾(١) .

أما فى الحياة الدنيا فقد أمر الله تعالى نبيه والمؤمنين معه بجهادهم والحذر منهم فقال تعالى : ﴿ ..... **هم العدو فاحذرهم** ... ﴾(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾(٣) .

واستجاب الرسول ﷺ لأمر ربه فجاهدهم كما أمر ، وكان له منهج خاص فى جهادهم ، بدأ بالصبر عليهم مع الحذر منهم وبيان أحوالهم وبيان صفاتهم ، وكان ذلك فى مبدأ قيام الدولة الإسلامية ، ثم تدرج حتى وصل إلى الغلظة عليهم وتهديدهم ومعاقبتهم مادياً ومعنوياً ، وذلك بعد ما مكن الله للمؤمنين .

وقد لخص الإمام ابن تيمية كيفية معاملة الرسول ﷺ للمنافقين بقوله :

(كان الرسول ﷺ يسمع من الكفار والمنافقين فى أول الإسلام أذى كثيراً ، وكان يصبر عليه امتثالاً لقول الله تعالى : ﴿ **ولاتطع**

---

(١) النساء : ١٤٥ .
(٢) المنافقون : ٤ .
(٣) التوبة : ٧٣ .

الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ (١) .

لأن إقامة الحدود عليهم كان يفضى إلى فتنة عظيمة ومفسدة أعظم من مفسدة الصبر على كلماتهم ، فلما فتح الله مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأنزل الله براءة ، قال فيها ﴿ **جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتِّلوا تقتيلا** ﴾ (٣) .

فلما رأى من بقى من المنافقين ماصار الأمر إليه من عز الإسلام ، وقيام الرسول ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين أضمروا النفاق ، فلم يكن يسمع من أحد من المنافقين بعد غزوة تبوك كلمة سوء وماتوا بغيظهم حتى بقى منهم أناس بعد موت النبى ﷺ يعرفهم صاحب السر حذيفة ، فلم يكن يصلى عليهم هو ولايصلى عليهم من عرفهم بسبب آخر ، مثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

فهذا يفيد أن النبى ﷺ كان يحتمل من أذى الكفار وهو بمكة

---

(١) الأحزاب : ٤٨ . (٢) التوبة : ٧٣ .

(٣) الأحزاب : ٦٠ ، ٦١ .

مالم يكن يحتمل بدار الهجرة والنصرة [1] .

خامساً : جهاد الظالمين والفاسقين :

سبق أن قلنا إن الجهاد كلمة جامعة شاملة يدخل فيها جميع أنواع السعى وبذل الجهد والكفاح واستخدام شتى الوسائل المشروعة لإحداث التغيير الذى تنشده دعوة الله ، وأنه توجد على الطريق عقبات يضعها الشيطان وحزبه .

ومعلوم أنه عندما تنجح الدعوة وتقوم الدولة الإسلامية وتجتمع الأمة الإسلامية على عبادة الله وحده وتحكيم شرعه والتزام أمره وتسيير كل شئون الأمة وفق ما أنزل الله ، فإن هذا البناء العظيم يحتاج إلى من يحافظ عليه ، ويصبح ذلك المجتمع الكريم محتاجاً إلى حمايته من أى انحراف قد يطرأ لأى سبب والعمل على تقويم أى منحرف حتى لايتسع الانحراف وتزداد رقعته فيصير الناس إلى جاهلية جهلاء ، ويخرجوا عن منهج الله سبحانه .

هذه المحافظة وتلك الصيانة إنما تتم عن طريق ما أوجب الله على هذه الأمة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو جهاد فى سبيل الله بالمعنى الشامل بدليل قول رسول الله ﷺ وقد سأله سائل : أى الجهاد أفضل ؟ قال : كلمة حق عند سلطان جائر » [2] .

---

(١) الصارم المسلول : ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) أخرجه النسائي بإسناد صحيح .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » (١) .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أعظم قواعد الإسلام ، وفى القرآن الكريم وفى السنة النبوية نصوص كثيرة فيها الحث على القيام بهذا الواجب والوعد بخير الجزاء لمن قام به والوعيد لمن تركه وتهاون فيه بأشد أنواع العقاب .

والأمة بخير مادامت قائمة بهذا الواجب بل إنها تكون خير أمة يقول الله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ...** ﴾ (٢) .

كما أن الله تبارك وتعالى قد ربط بين القيام بهذا الواجب وبين تحقيق الفلاح للأمة فقال سبحانه : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ (٣) .

فهذه الآية واضحة الدلالة على أن ذلك واجب على الأمة كما بينت أن الفلاح منوط بالقيام بهذه الفريضة .

---

(١) رواه الترمذى والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٢) آل عمران : ١١٠ .

(٣) آل عمران : ١٠٤ .

وهو جهاد تقوى به جبهة أهل الإيمان ، ويضيق به على أهل النفاق والعصيان وتقصم ظهور أهل الظلم والطغيان .

يقول الإمام ابن القيم مبيناً خطر تعطيل فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحجة التفرغ لأنواع أخرى من العبادات كالذكر والقراءة والصيام (وقد غر إبليس أكثر الخلق بأن حسن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد فى الدنيا والانقطاع ، وعطلوا هذه العبوديات (١) فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها ، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس دينا ، فإن الدين هو القيام لله بما أمر به ، فتارك حقوق الله التى تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعاصى ...

ومن له خبرة بما بعث رسوله ﷺ ، وبما كان عليه هو وأصحابه سيرى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس ديناً . والله المستعان .

وأى دين وأى خير فيمن يرى محارم الله تنتهك ، وحدوده تضاع ، ودينه يترك ، وسنة رسوله ﷺ يرغب عنها ، وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطان أخرس ، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق .

وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم

(١) أى عبادة الله بالجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين .

وخيارهم المتحزن المتلمظ ، ولو نوزع فى بعض مافيه غضاضة عليه فى جاهه أو ماله بذل وتبدل وجد واجتهد واستعمل مراتب الإنكار الثلاث بحسب وسعه .

وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ، ومقت الله لهم قد بُلوا فى الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لايشعرون وهو موت القلوب ، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى وانتصاره لدين الله أكمل) (١) .

هذا ولقد ثارت فى زماننا هذا بدعة غريبة روج لها البعض وحاولوا تثبيتها فى عقول الناس ، ومؤداها أن تغيير المنكر باليد وظيفة الحكام وحدهم من دون الناس ، وأن تغيير المنكر باللسان هو وظيفة العلماء الرسميين وحدهم من دون الناس ، وليس أمام باقى أفراد الأمة إلا أن يغيروا المنكر بالقلب .

وهذا الإدعاء - فضلاً عن مخالفته لنصوص القرآن والسنة - فإنه حكم على الغالبية العظمى من الأمة بأن تعيش فى أدنى درجات الإيمان وأضعفها وهو تغيير المنكر بالقلب .

وهى دعوة للمزيد من السلبية واللامبالاة التى تقتل الأمة وتقضى على كيانها وتؤدى إلى شيوع المنكرات وانتشار الفساد

(١) إعلام الموقعين جـ٢ صـ١٧٧ .

فيها ، وهذا الزعم مخالف لكل ماورد عن السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

وهذا حديث رسول الله ﷺ يبين الضرر العظيم الذى يترتب على إهمال هذا الواجب ، يشير إلى أنها مسئولية عامة يشترك فى تحملها كل أفراد الأمة .

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا ستقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » (١) .

فانظر كيف بين رسول الله ﷺ فى هذا المثل أن هلاك المجتمع إنما هو نتيجة محتومة لترك أصحاب الفساد والمنكر يعيثون فى الأرض فسادا ، وعدم منعهم والأخذ على أيديهم .

وهذا أبو بكر بن العربى يؤكد عموم مطالبة جميع الأمة بالقيام بهذه الفريضة ، فيقول (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أصل فى الدين وعمدة من عمد المسلمين وخلافة رب العالمين والمقصود الأكبر من بعث النبيين ، وهو فرض على جميع الناس مثنى وفرادى

(١) رواه البخارى والترمذى وقال حسن صحيح .

بشرط القدرة عليه) (١) .

وواضح من هذا أن الأمر مرده إلى القدرة والاستطاعة كما جاء فى الحديث ، وبحيث لايترتب على إنكار المنكر منكر أشد منه ، وأن يكون المنكر مجمعاً على كونه منكراً وليس مختلفاً فيه ، وغير ذلك من الشروط والآداب التى ذكرها العلماء ، وليس الأمر على التقسيم المزعوم . والله أعلم .

ومما سبق يظهر أن الجهاد فى هذه الميادين وبجميع الأساليب التى شرعها الله وبكل الوسائل التى تحدثت عنها السنة المطهرة ، وطبقها رسول الله وأصحابه هو سبيل إلى الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة ، وأن الركون إلى الدعة والنكوص عن الجهاد سبيل إلى الهلكة والذلة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

يقول الله تعالى : ﴿ **وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين * رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون * لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون * أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم** ﴾ (٢) .

---

(١) تفسير القاسمى جـ٤ صـ١٠٤ .   (٢) التوبة : ٨٦ ـ ٨٩ .

حفظ اللسان سبيل إلى الفلاح

إذا نظرنا فى كل الكلام الذى يصدر من الإنسان وجدنا أن من الكلام قبيحاً وأقبح ، وفاحشاً وأفحش ، ومنه الحسن والأحسن . وقد وجهنا الله سبحانه لقول الكلمة الأحسن فقال عز من قائل : ﴿ **وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينا** ﴾ (١) وتذييل هذا الأمر بقوله تعالى : ﴿ **إن الشيطان ينزغ بينهم** ﴾ فى منزلة التعليل لهذا الأمر ، يعنى أنه إذا نزل الكلام عن هذا المستوى الرفيع فذلك يعطى الشيطان فرصة النزغ بينهم (٢) ، وعندما نتأمل حال أكثر الخلق نجد أن أكثر كلامهم يدور بين القبيح والأقبح والفاحش والأفحش والمباح ، ونادرا ما يرتقى كلام بعضهم إلى دائرة الحسن ، مع أن كلام الحسن نازل عن درجة الأحسن ويمكن أن ينزغ الشيطان بين أهله ، ومن ذلك ندرك أن هذا المقام صعب المرتقى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى

(١) الإسراء : ٥٣ .
(٢) النزغ : هو الأفساد والإغراء .

يستقيم لسانه » (١) .

وعلى هذا فإنه ينبغى لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة ، ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الإمساك عنه ، لأن الكلام المباح قد يجر إلى مكروه أو حرام ، وذلك كثير فى العادة ، والسلامة لايعدلها شيء .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » (٢) .

واعلم أن خطر اللسان عظيم وأنه لانجاة من خطره إلا بالصمت .

عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من يضمن لى مابين لحييه (٣) ومابين رجليه أضمن له الجنة » (٤) .

ومما يدل على خطر اللسان وأن له منزلة خاصة بين بقية أعضاء الجسد ، ماورد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان (٥) تقول :

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده . (٢) متفق عليه .
(٣) مابين لحييه : الفم ، ومابين رجليه : الفرج . (٤) متفق عليه .
(٥) أى تذل وتخضع له ، أو تصفه بكفر النعمة إذا انحرف عما خلق له .

اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » (١) .

وقد ثبت أن إمساك اللسان وضبطه سبيل إلى النجاة ، وطريق إلى الجنة ، وأن إطلاق اللسان سبيل إلى الهلاك وطريق إلى النار .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن العبد ليتكلم الكلمة من رضوان الله تعالى لايلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لايلقى لها بالا يهوى بها فى نار جهنم » (٢) .

ويبدو أن حفظ اللسان من أهم المحاور التى تدور عليها أعمال الإسلام وتكاليفه ، لما للسان من ارتباط وثيق بالعديد من الأعمال والتكاليف .

يوضح ذلك ويبينه الحديث الذى رواه معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار قال : « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه ، تعبد الله لاتشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ،

---

(١) رواه الترمذى وصححه ابن خزيمة .

(٢) رواه البخارى .

وصلاة الرجل من جوف الليل ، ثم تلا : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ... ﴾ حتى بلغ ﴿ ... **يعملون** ﴾ (١) ، ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ (٢) ، قلت : بلى يارسول الله ، قال : رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ ، قلت : بلى يارسول الله ، فأخذ بلسانه فقال : كف عليك هذا ، قلت : يارسول الله : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ ، قال : ثكلتك أمك (٣) ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » (٤) .

ومن أجل وأكرم ما يقوم به اللسان الدعوة إلى الخير .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذكر الله .

عن عبد الله بن بشر رضى الله عنه أن رجلاً قال : يارسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبث به (٥) قال : لايزال لسانك رطبا بذكر الله » (٦) .

وقد رويت عن السلف الصالح رضوان الله عليهم أقوال حول أهمية اللسان ومايبدر منه تعتبر من عيون الحكم ، نورد منها مايأتي :

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من كثر كلامه كثر

---

(١) السجدة : ١٦ ، ١٧ . (٢) أعلاه . (٣) فقدتك .

(٤) رواه الترمذى وقال حسن صحيح . (٥) أى أتعلق به .

(٦) انظر كتاب المستخلص صـ٣٦٧ والحديث رواه الترمذى وقال حديث حسن .

سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به .

وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : والله الذى لا إله إلا هو ماشىء أحوج إلى طول سجن من لسان .

وقال طاوس : لسانى سبع إن أرسلته أكلنى .

ويقول الحسن البصرى رضى الله عنه : يقولون إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشىء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا همَّ بشىء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه .

كما روى عنه قوله : تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت ، فقال له : مالك يا أبا بحر لاتتكلم ؟ فقال : أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت .

فإن قلت ، فهذا الفضل الكبير للصمت ماسببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات .

فهذه آفات كثيرة وهى سباقة إلى اللسان لاتثقل عليه .

ولها حلاوة فى القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه

عما لايحب ، فإن ذلك من غوامض العلم ، ففى الخوض خطر ، وفى الصمت سلامة ، فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع مافيه من جمع الهم (١) ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ومن حسابه فى الآخرة ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ (٢) .

ومما يدل على فضل الصمت أن الكلام على أربعة أقسام :

قسم هو ضرر محض ، وقسم نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة .

فأما الذى هو ضرر محض : فلابد من السكوت عنه ، وكذلك مافيه ضرر ومنفعة لاتفى بالضرر .

وأما مالا منفعة فيه ولاضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران ، فلايبقى إلا القسم الرابع وهو ماكان نفعاً محضاً) (٣) .

ومن ذلك يظهر أن الصمت ينبغى أن يكون أكثر من الكلام .

وقد حاول بعض العلماء استقصاء ماهو مطلوب من اللسان فعدّ من ذلك شيئاً كثيراً ، وحاول استقصاء مانهى عنه اللسان فعدد أضعاف ذلك .

---

(١) أى الهمة. (٢) ق : ١٨ .

(٣) المستخلص صـ ٣٧١ ومابعدها بتصرف .

ومن هذا نستطيع أن ندرك السر فى أن حفظ اللسان سبيل إلى الفلاح ، حيث يذكره الله تبارك وتعالى بين الصلاة والزكاة فيقول ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون** ﴾ (١) .

يقول الإمام ابن كثير فى تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ **والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾ أى عن الباطل ، وهو يشمل الشرك كما قال بعضهم ، والمعاصى كما قال آخرون ، ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى ﴿ **وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ (٢) .

قال قتادة : (أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك يعنى ماشغلهم عن اللغو والخوض فما لاخير فيه) .

وضبط اللسان وحفظه عن اللغو من أهم ثمرات تزكية النفس لأنه أحد المظاهر السلوكية لهذه التزكية ، ولهذا عد من صفات أهل الفلاح الذين زكت نفوسهم وسمت أخلاقهم وتطهرت ألسنتهم ، وهذا مايدل عليه قول الله تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾ (٣) .

---

(١) المؤمنون : ١ ـ ٤ . (٢) الفرقان : ٧٢ .
(٣) المؤمنون : ١ ـ ٣ .

حفظ الفروج سبيل إلى الفلاح

(سبق أن قلنا إن من وسائل السمو بالنفس وإلزامها سبيل الطهارة أن تترفع عن الزنا وما شاكله من الفواحش لأنه دنس وقذارة ، وهبوط وحقارة ، ولهذا كان حفظ الفروج عن الفواحش من أخلاق أهل الإيمان وخصال أصحاب الفلاح)(١) .

ومعلوم أن الإسلام يسعى لإقامة مجتمع نظيف عفيف ، تصان فيه الحرمات ، وتستر العورات حتى لاتستثار الشهوات ، ومن أجل هذا فقد اعتنى منهج التربية الإسلامية بتضييق فرص الغواية وإبعاد عوامل الفتنة ، وأخذ الطريق على أسباب الإثارة ، وفى الوقت نفسه عمل على إزالة العوائق التى تحول دون الإشباع الجنسى بالوسائل النظيفة المشروعة .

ولهذا فقد جعل الإسلام للبيوت حرمتها التى لايجوز المساس بها فلا يفاجأ الناس فى بيوتهم بدخول الغرباء عليهم إلا بعد استئذانهم والسماح لهم بالدخول خيفة أن تطلع الأعين على خفايا البيوت

---

(١) فصل قد أفلح من زكاها .

وعلى عورات أهلها وهم غافلون .

وفى نفس الوقت أمر الله الرجال والنساء بغض البصر ،وأمر النساء بعدم التبرج بالزينة لإثارة الشهوات .

وعلى صعيد آخر يسَّر الإسلام أمر الزواج للأغنياء والفقراء من الرجال والنساء على السواء ، لأن الزواج هو الضمان الحقيقى لسد باب الفتن .

يقول الله تعالى ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ...** ﴾ الآية (١) .

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله (إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لاتهاج فيه الشهوات فى كل لحظة ولاتستثار فيه دفعات اللحم والدم فى كل حين ، فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهى إلى سعار شهوانى لاينطفئ ولايرتوى .

والنظرة الخائنة، والحركة المثيرة، والزينة المتبرجة ، والجسم العارى ، كلها لاتصنع شيئا إلا أن تهيج ذلك السعار الحيوانى المجنون ، وإلا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة ، فإما الإفضاء

(١) النور : ٣٠ ـ ٣١ .

الفوضوى الذى لايتقيد بقيد ، وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة وهى تكاد أن تكون عملية تعذيب .

وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هى الحيلولة دون هذه الاستثارة ، وإبقاء الدافع الفطرى العميق بين الجنسين سليما بقوته الطبيعية دون استثارة مصطنعة وتصريفه فى موضعه المأمون النظيف .

إن الميل الفطرى بين الرجل والمرأة ميل عميق فى التكوين الحيوى لأن الله قد ناط به امتداد الحياة على هذه الأرض وتحقيق الخلافة لهذا الإنسان فيها ، فهو ميل دائم يسكن فترة ثم يعود . وإثارته فى كل حين تزيد من عرامته وتدفع به إلى الإفضاء المادى للحصول على الراحة ، فإذا لم يتم هذا تعبت الأعصاب المستثارة ، وكان هذا بمثابة عملية تعذيب مستمرة . والنظرة تثير ، والحركة تثير ، والضحكة تثير ، والدعابة تثير ، والنبرة المعبرة عن هذا الميل تثير ، والطريق المأمون هو تقليل هذه المثيرات بحيث يبقى هذا الميل فى حدوده الطبيعية ثم يلبى تلبية طبيعية .

وهذا هو المنهج الذى اختاره الإسلام . وغض البصر من جانب الرجال أدب نفسى ومحاولة للاستعلاء على الرغبة فى الاطلاع على المحاسن والمفاتن فى الوجوه والأجسام ، كما أن فيه إغلاقاً للنافذة

الأولى من نوافذ الفتنة والغواية ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم .

وحفظ الفروج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر ، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة ويقظة الرقابة ، والاستعلاء على الرغبة فى مراحلها الأولى ، ومن ثم يجمع بينهما فى آية واحدة بوصفهما سبباً ونتيجة أو باعتبارهما خطوتين متواليتين فى عالم الضمير وفى عالم الواقع) [1] .

هذا هو العلاج النفسى الوقائى لهذه المسألة ، ولكن الأمر فى حاجة ـ مع هذا ـ إلى ضرورة المواجهة بحلول واقعية تناسب هذا الميل الفطرى وتلبيه ولا تكبته .

هذه الحلول الواقعية تتمثل فى تيسير الزواج والمعاونة عليه ، والعمل على إغلاق كل أبواب الفاحشة .

ذلك أن الزواج هو الطريق المشروع لإشباع هذه الميول الفطرية ، وهو الغاية النظيفة لهذه الميول فيجب أن تزال العقبات من طريق الزواج لتجرى الحياة على طبيعتها وبساطتها ، وكثيرون يحسبون أن التقيد بمنهج الله ـ وبخاصة فى علاقات الجنسين ـ شاق مجهد وأن الانطلاق من ضوابط منهج الله ميسر مريح .

---

(١) فى ظلال القرآن عند تفسير الآيات من سورة النور . بتصرف .

وهؤلاء وقعوا فى وهم كبير ، وإن النظر فى حياة المجتمعات التى تحررت أو بالأحرى تحللت من قيود الدين والأخلاق والحياء فى علاقات الجنسين يكفى لإلقاء الرعب فى القلوب .

لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هى المعول الأول الذى حطم الحضارة القديمة وهو نفس المعول الذى يوشك أن يحطم الحضارة الغربية المعاصرة وكل الدائرين فى فلكها .

وحق على العقلاء أن يلتزموا بمنهج الله ، وهو منهج قائم على التيسير والتخفيف على الإنسان الضعيف ، وصيانته من نزواته وحمايته من شهواته ، وهدايته إلى الطريق الآمن والوصول به إلى الطهارة والصلاح ، والرشد والفلاح .

والعقلاء حقا من هجروا مناهج أصحاب الأهواء الذين يتبعون الشهوات ويعملون على إطلاق الغرائز من كل عقال دينى أو خلقى أو إجتماعى .

يقول الله تعالى : ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا** ﴾ (١) .

---

(١) النساء : ٢٦ ـ ٢٨ .

هذا وإن مفسدة الزنا من أعظم المفاسد فهى منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الأنساب ، وحماية الأعراض ، وصيانة الحرمات ، وتوقى مايوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس .

لذلك قرنه الله بالشرك والقتل فقال سبحانه : ﴿ **والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا** ﴾ (١) .

ومن آثار الزنا أنه يوجب الفقر ويقصر العمر ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس .

ومن آثاره كذلك أنه يشتت القلب ويمرضه ، وقد يميته ويجلب الهم والحزن والخوف .

وإن المجتمع الذى تنطلق فيه الشهوات بدون ضوابط مجتمع معرض للخلل والفساد لأنه لا أمن فيه للبيت ولا حرمة فيه للأسرة .

(والجماعة التى تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قذرة هابطة ، لأن المقياس الذى لايخطئ للارتقاء البشرى هو تحكم الإرادة الإنسانية وغلبتها وتنظيم الدوافع الفطرية فى صور مثمرة نظيفة لايخجل الأطفال معها من الطريقة التى جاءوا بها إلى هذا العالم لأنها طريقة نظيفة معروفة يعرف فيها كل طفل أباه) (٢) .

---

(١) الفرقان : ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) تفسير الظلال صـ٢٤٥٥ ط الشروق .

والسلامة والفلاح فى سلوك هذا الطريق النظيف ، طريق حفظ الفروج من الفاحشة بكل أشكالها ، وأن تكون العلاقة بين الجنسين قائمة على أساس الزواج الذى شرعه الله .

وهذا يعتبر طريقا يؤدى إلى الجنة وسبيلاً يؤدى إلى الفلاح باعتبار أن ذلك هو مسلك المؤمنين المفلحين .

يقول ﷺ : « من يضمن لى مابين لحييه ، ومابين رجليه أضمن له الجنة » (١) .

ويقول الله تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ (٢) .

يقول الإمام ابن كثير (أى والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلايقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط ولايقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم أو ماملكت أيمانهم من السرارى ، ومن تعاطى ما أحل الله له فلا لوم عليه ولاحرج) (٣) .

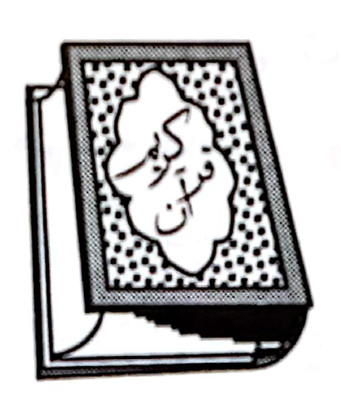
---

(١) متفق عليه .
(٢) المؤمنون : ١ ـ ٧ .
(٣) تفسير أول المؤمنون .

إن فلاح هؤلاء فى الدنيا يتضح مما سبق بيانه ، وأما فلاحهم فى الآخرة فإن الله وعدهم بأعلى المنازل فى الجنة وهو الفردوس الأعلى فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ .... **أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ (١) .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سألتم الله الجنة فسألوه الفردوس فإنه أعلا الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تتفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » .

كما ثبت فى الصحيحين أن الذين حفظوا فروجهم يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله ، كما جاء فى الحديث عن البخارى ومسلم فى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله : « .... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله تعالى » .



(١) المؤمنون : ١٠ ـ ١١ .

أداء الأمانة سبيل إلى الفلاح

إن الأمانة عظيمة القدر فى الدين عظيمة النفع فى الدنيا .

والأمانة هى كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر ونهى ، أو أى شأن من شئون الدين والدنيا .

فرعاية حقوق الله تعالى بتأدية الفرائض والواجبات وترك المحرمات أمانة .

وقد روى عن جمع من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فى قول الله تعالى : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ...** ﴾ (١) .

قولهم : الأمانة فى كل شىء ، فى الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والكيل والميزان والودائع وغيرها .

وعلى هذا فإن حقوق الله والمحافظة عليها أمانة الله التى ائتمن عليها عباده ، والتكاليف الشرعية كلها أمانة كما بينت ذلك الآية الكريمة : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال**

---

(١) النساء : ٥٨ .

فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما ﴾ (١) .

إن كل حق عندك للغير فهو أمانة ينبغى أن تؤديها إليه، فالدين أمانة والوديعة أمانة .

والرسول ﷺ يقول : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله » (٢) .

ويقول أنس بن مالك رضى الله عنه : ماخطبنا رسول الله ﷺ إلا قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولادين لمن لاعهد له » (٣) .

ومن الأمانة حفظ حقوق العباد فلا يطمع المرء فى وديعة اؤتمن عليها ولاينكر مالا وكِّل إليه أمر حراسته ، ولا يجحد دينا فى ذمته .

فولى مال اليتيم أمين على مال اليتيم فإن أهمله أو ضيعه أو أكله فقد خان الأمانة واستحق وعيد الله لأمثاله كما جاء فى قوله سبحانه:
﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم

---

(١) الأحزاب : ٧٢ ـ ٧٣ .
(٢) رواه البخارى وأحمد وابن ماجة .
(٣) رواه الإمام أحمد .

ناراً وسيصلون سعيرا ﴾ (١) .

والكيل والميزان أمانة فمن أعطى الناس حقوقهم فى الكيل والميزان وأخذ حقه فهو أمين ، ومن طفف الكيل والميزان فقد خان الأمانة وصار ممن توعدهم الله بالويل والهلاك وسوء المصير .

يقول الله تعالى : **﴿ ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾** (٢) .

وعقود شركات التجارة بين الناس أمانة تجب المحافظة عليها والالتزام بشروطها .

يقول ﷺ : يقول الله تعالى : « أنا ثالث الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه فإذا خانه خرجت من بينهما » (٣) .

والمعنى أن معونة الله وتوفيقه يكونان مع الشريكين الأمينين ، فإذا خان أحدهما صاحبه ارتفعت معونة الله وتوفيقه وذهب أثرهما من تجارتهما بسبب الحرمان من معونة الله وتوفيقه .

---

(١) النساء : ١٠ .
(٢) المطففين : ١ ـ ٦ .
(٣) رواه أبو داود والحاكم .

ولا غرابة فى ذلك فإن التاجر الذى يعرف بالأمانة يحظى بثقة إخوانه من التجار كما يحظى بثقة الناس فيقبلون على التعامل معه ، وبهذا تزيد أرباحه ويتحقق نجاحه .

أما إذا كان التاجر غير أمين فإن الإفلاس يحل به لأن الناس عندما يكتشفون أمره سينصرفون عنه ولا يتعاملون معه .

وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » (١) .

وإذا ائتمنك أخوك على سر فهو أمانة ، فإذا أفشيت سره فقد خنت الأمانة .

والمستشار مؤتمن ، فإذا استشارك أحد فى أمر وطلب منك النصيحة ، فإن من الأمانة أن تنصح له بما تنصح به نفسك ، وأن تشير عليه بالذى كنت ستفعله لو كنت فى موضعه .

لقول رسول الله ﷺ فى هذا المعنى : « المستشار مؤتمن » (٢) .

ومن الأمانة ألا يستعمل الإنسان سمعه أو بصره أو شيئاً من جوارحه فى فحش أو باطل ، وألا يقول لسانه إلا حقا .

---

(١) رواه الترمذى والحاكم . (٢) رواه الطبرانى فى الأوسط .

وإن الصادق فى قوله الوفى بعهده ووعده الأمين على ما ائتمن عليه مقرب من الله منعم فى أهله محبب إلى الناس أجمعين .

وإن الكاذب فى قوله الغادر بوعده وعهده المضيع لما ائتمن عليه بعيد عن الله ممقوت من أهله مبغض من الناس أجمعين .

ومن أجل هذا عد من المنافقين ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (١) .

ومن الأمانة أن يقوم المؤمن بواجبات العمل أو الوظيفة التى يشغلها بصدق وإخلاص وجد واجتهاد ، ومن لم يفعل فقد خان الأمانة .

ومن الأمانة أن يكافئ المحسن ، وأن يعاقب المسىء وأن لايقدم إنسان أو يؤخر إلا بعمله .

ويوم تختل موازين الدنيا فيؤخر العامل ويقدم الخامل وتطغى الشفاعات على الكفاءات ، ويصبح الحكم مغنماً ، يومها تهتز الحياة لتسقط ، ويومئذ تقوم الساعة .

---

(١) متفق عليه .

جاء رجل يسأل رسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ فقال له : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » فقال : وكيف إضاعتها ؟ ، قال « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » (١) .

وحكى القرطبى فى تفسيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : أول ماخلق الله من الإنسان فرجه ، وقال هذه أمانة أستودعكها فلاتلبسها إلا بحق (٢) ، فإن حفظتها حفظتك ، فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له .

ومن أعظم الأمانات المحافظة على الأسرار ، فإذا حدثك صاحبك بحديث يكشف لك فيه عن خاصة أمره فقد ألقى بين يديك أثقل الأمانات .

يقول ﷺ : « إذا حدث رجل رجلا بحديث ثم التفت فهو أمانة » (٣) .

ومعناه أن من خلا بصاحبه ليتحدث معه ثم بدرت منه التفاتة تنبئ عن رغبته فى أن لايكون هناك ثالث يسمع حديثه فهذه اللفتة

---

(١) رواه البخارى .

(٢) وفى بعض النسخ فلاتبسل منها إلا بحق ، أى فلاتضعها إلا فى حقها .

(٣) رواه الإمام أحمد .

العابرة تعطى للحديث حرمة الأمانة وتضرب حوله نطاقاً من الحفظ والصيانة .

والمحافظة على الأسرار دليل القوة ، ومقياس من مقاييس الكمال والفضل فى النفس الإنسانية ، فحمل الأسرار أثقل من حمل الجبال .

يقول أبو سعيد الثورى (إذا أردت أن تؤاخى رجلاً فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك ، فإن قال خيراً وكتم سرك فاصحبه) .

وقد أسر رجل إلى صديقه حديثا ثم قال له : أحفظت ؟ .

قال : لا بل نسيت .

ولحظات النجوى بين الرجل وزوجه لها حرمة الأمانة ، والعلاقات الزوجية لها قداستها وهى سر بين الزوجين يجب أن يصان عن القريب والبعيد ، وإن من المجانة أن يحدث الرجل أو تثرثر المرأة بما يدور بينها وبين زوجها فتلك وقاحة يبرأ منها أدب الإسلام .

يقول ﷺ : « إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سرها » (١) .

---

(١) رواه مسلم .

وقد يظن البعض أننا فى حل من أن نخون من خاننا ، ولكن هذا الظن غير صحيح ، ونحن مطالبون بأداء الأمانات إلى أهلها فى كل ظرف ، ومهما كان سلوك أهلها معنا ، وهذا مافعله رسول الله ﷺ مع أهل مكة الذين آذوا رسول الله ﷺ وأصحابه ورفضوا دعوته وكذبوه ، فلما أذن الله له فى الهجرة من مكة خلف وراءه ابن عمه على بن أبى طالب رضى الله عنه لكى يؤدى الأمانات التى كانت عنده لأهل مكة .

وكذلك فعل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة ، يقول القرطبى فى تفسير قول الله تعالى : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا** ﴾ (١) .

قال ابن جريج هى خطاب للنبى ﷺ خاصة فى أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن طلحة بن أبى طلحة العبدرى من بنى عبد الدار ، ومن ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ، وكانا كافرين يوم فتح مكة ، فطلبه العباس بن عبد المطلب لتضاف له السدانة إلى السقاية ، فدخل رسول الله الكعبة فكسر ما كان فيها من الأوثان وأخرج مقام إبراهيم ونزل عليه جبريل بهذه الآية ، قال عمر بن الخطاب : وخرج رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية وماكنت

---

(١) النساء : ٥٨ .

سمعتها قبل منه ، فدعا عثمان وشيبة ، فقال « خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم » وحكى مكى أن شيبة أراد أن لا يدفع المفتاح إلى رسول الله ﷺ ، ثم دفعه وقال للنبى صلى الله عليه وسلم خذه بأمانة الله) .

وهكذا أخذه رسول الله بأمانة الله ورده بأمانة الله امتثالاً لأمر الله مع أنه مفتاح الكعبة ، وهو فى عهدة كافر ، ومع أن الذى يطلبه هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ .

من ذلك يتضح أننا مطالبون بأداء الأمانات إلى أهلها على كل حال .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولاتخن من خانك » (١) .

ومن أجل هذا كانت الأمانة من أهم صفات المؤمنين بل إن وجودها دليل على الإيمان ، كما جاء فى الحديث الشريف « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه » (٢) .

إن الأمانة هى ينبوع السعادة ومصدر الفلاح بها يثق الناس بالمرء فيمنحونه أموالهم يتجر بها إن كان تاجراً ويوكلون إليه أعمالهم يقوم

---

(١) رواه الترمذى وأبو داود وغيرهما .

(٢) متفق عليه .

بشأنها ويرعاها فيستفيد ويفيد .

وإن الشخص الأمين يجد المعونة على الشدائد كلها فى كل وقت .

وكذلك الحال بالنسبة للأمم والجماعات فلم ترق أمة ولم تحظ بالغنى إلا بسبب الأمانة ، وما ربحت تجارة وازدهرت إلا بالأمانة ، ولا راجت صناعة بدون أمانة ، ولاأفلحت ولانجحت شركة بغير أمانة .

من أجل هذا كانت رعاية الأمانة والمحافظة عليها سبيلاً إلى الفلاح فى الدنيا والآخرة .

يقول الله تعالى ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ..... ﴾ إلى أن قال : ﴿ ... **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ (١) .

وعن على رضى الله عنه قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فطلع علينا رجل من أهل العالية ، فقال يارسول الله : أخبرنى بأشد شىء فى هذا الدين وألينه ؟ فقال : « ألينه أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأشده ياأخا العالية الأمانة ، إنه لادين لمن لا أمانة له ولاصلاة له ولا زكاة له » (٢) .

---

(١) المؤمنون : ١ ـ ١١ .
(٢) رواه البزار .

الوفاء بالوعد سبيل إلى الفلاح

إن الوفاء بالوعد والمحافظة على العهد مما أجمعت عليه الشرائع كلها، وبه خاطب الله أنبياءه ورسله وأوصى به سائر خلقه، ولم ينسخ فى أى ملة .

روى القرطبى عن عبد الله بن المبارك قال : أخبرنا عيسى بن عمر عن عمرو بن مرة أنه حدثهم قال : قال ربيع بن خيثم لجليس له أيسرك أن تؤتى بصحيفة من النبى ﷺ لم يفك خاتمها ؟ ، قال : نعم ، قال : فاقرأ ﴿ **قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ...** ﴾ فقرأ إلى آخر الثلاث آيات (١) .

وفيها تجد قوله تعالى ﴿ .... **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** ﴾ .

وهو كل ما عهد الله به إلى عباده أو وهو يشمل هذا كما يشمل كل عقد تم بين اثنين أو جماعة ، فهو عهد يجب الوفاء به وعلى مدار صلاح أحوال الناس ، ولهذا تكرر الأمر به فى مواضع كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يقول الله تعالى : ﴿ **ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا**

---

(١) الأنعام : ١٥١ ـ ١٥٣ .

بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ [1] .

أى يسأل عنه صاحبه إن كان قد وفى أو غدر ، أو أن العهد نفسه يسأل تبكيتاً لصاحبه الذى غدر ونقض العهد كقول الله تعالى **﴿ وإذا الموءودة سئلت * بأى ذنب قتلت ﴾** [2] .

ويقول الله تعالى : **﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون ﴾** [3] .

وهو عام فى كل ماعقد باللسان والتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو غير ذلك .

وقيل إن العهد كاليمين فى ضرورة الالتزام به وعدم نقضه أو الحنث فيه مع فارق بينهما ، وهو أن اليمين يمكن أن يكفر عنه بخلاف العهد .

ولهذا قال ﷺ : « لكل غادر لواء عند إسته [4] يوم القيامة ، يرفع له بقدر غدرته ، ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة » [5] .

---

(1) الإسراء : ٣٤ .
(2) التكوير : ٨ ، ٩ .
(3) النحل : ٩١ .
(4) أى دبره .
(5) رواه مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » (١) .

ومن صفات المؤمنين الوفاء ، به يرفع الله درجتهم ويعلى قدرهم .

يقول الله تعالى ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق** ﴾ (٢) .

وقد وعدهم الله بحسن العاقبة وكفى بذلك فلاحاً ونجاحا .

يقول الله سبحانه ﴿ **.... أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ (٣) .

صدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين ، وضده ـ وهو الخلف ـ مذموم ، وهو من أخلاق الفاسقين والمنافقين ، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على خليله إبراهيم عليه السلام فوصفه بالوفاء

---

(١) رواه البخارى .   (٢) الرعد : ١٩ ، ٢٠ .   (٣) الرعد : ٢٢ ـ ٢٤ .

حيث يقول سبحانه : ﴿ **أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ماسعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾ (١) .

كما أثنى الله تبارك وتعالى على سيدنا إسماعيل الذبيح عليه السلام فوصفه بصدق الوعد ، قال عز من قائل : ﴿ **واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا** ﴾ (٢) .

وكما أن الوفاء من صفات المؤمنين فإن الغدر من صفات المنافقين .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (٣) .

وقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة فى الوفاء بالعهد ... من ذلك :

أنه لما تم الاتفاق بين رسول الله ﷺ وبين سهيل ابن عمرو - ممثلاً لأهل مكة - على شروط صلح الحديبية كان من بين هذه

---

(١) النجم : ٣٥ - ٤١ . (٢) مريم : ٥٤ .
(٣) متفق عليه .

الشروط أن من أتى محمداً ﷺ من قريش رده إليهم ، وإن كان مسلماً ، ومن جاء قريشاً ممن هو مع محمد ﷺ لم يردوه إليه .

وقد تألم المسلمون من هذا الشرط وكانت لهم حوله مناقشات مع رسول الله ﷺ وكان مضمون إجابته ﷺ أن من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجا .

ثم جاءت لحظة الاختبار سريعاً وذلك عندما حضر فى نفس المجلس أبو جندل (ابن سهيل بن عمرو) فاراً بدينه من المشركين ومحتمياً بالمسلمين ، فقام إليه أبوه وأخذ بتلابيبه وهو يقول : يامحمد لقد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت ، فأخذ سهيل بن عمرو يجر ولده ليرده إلى قريش ، وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ .

فقال رسول الله ﷺ : يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجا ، إنا أعطينا القوم عهوداً ، وإنا لن نغدر بهم .

وبعد انصرافهما جاء رجل آخر يقال له أبو بصير وهو من قريش جاء مسلما فأرسلت قريش فى أثره رجلين من المشركين يطلبان استرداده فسلمه الرسول ﷺ إليهما وفاء بعهده .

لكن أبا بصير لما ذهب معهما غافلهما فى الطريق وأخذ سيف أحدهما وقتله وفر الآخر ، وعاد أبو بصير إلى رسول الله ﷺ وقال له يانبى الله لقد أوفى الله ذمتك قد رددتنى إليهم فأنجانى الله منهم ، ثم خرج أبو بصير من المدينة التزاماً بعهد رسول الله ﷺ وذهب ليعيش فى الصحراء قريباً من شاطئ البحر ، وشاء الله أن يهرب أبو جندل أيضا ، وأن يلتقى بأبى بصير وحدث أن أسلم أناس من قريش ولحقوا بهما وكانت لاتخرج عير لقريش إلا اعترضوها وقتلوا المشركين وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ تناشده الله والرحم أن يقبلهم عنده ويضمهم إليه فجاءوا إلى المدينة وعاشوا مع المسلمين .

وهذه بركات الوفاء بالعهد وتلك ثماره وشاء الله تبارك وتعالى أن يكون لأبى جندل فضل على أبيه ، إذ أنه قد طلب الأمان لأبيه عند فتح مكة وأجيب إلى طلبه .

وهكذا وَفَّى رسول الله بالعهد برغم هذه الظروف الصعبة التى أحاطت بالمسلمين ، صلوات ربى وتسليماته عليك ياسيد الأوفياء ويامن علمت الخلق كيف يكون الوفاء ، يامن بعثت لتتم مكارم الأخلاق .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة



هذا الكتاب

سُبُل الفَلاح

: قال رسول الله ﷺ « خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ، ولبنة من زبرجدة خضراء ، ملاطها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ ، وحشيشها الزعفران ، ثم قال لها انطقى ، قالت ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ فقال الله وعزتى وجلالى لايجاورنى فيك بخيل ، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ (رواه ابن أبى الدنيا بسنده عن أنس) .

من هنا نفهم أن تزكية النفس والمحافظة على الطاعات وفعل الخيرات ★ والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤدى إلى الفلاح .

وأن مجاهدة النفس والتغلب على الشح والبخل ★ والدعاء والذكر والتوبة والاستغفار والإنابة كلها سبل إلى الفلاح .

وأن طهارة القلب ونظافة اليد واللسان والفرج ★ والجهاد والصبر والمصابرة وأداء الأمانات ، والصدق فى الحديث ، والوفاء بالوعد ، والمحافظة على العهد كلها سبل تؤدى إلى الفلاح .

وجماع ذلك كله الإيمان بالله واليوم الآخر إيماناً يدفع إلى كل عمل صالح ويحفظ الإنسان من كل عمل طالح .



دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية
طنطا ٣٢ ش الزواوى ـ أمام كلية التربية النوعية
ت : ٣٢٢٤٠٤ ـ فاكس : ٣٣١٨٠٠